وزارة الثقافة

عيسى السفري

رسالتي

مجموعة

في الادب والفن والاجتماع والشعر المنثور

مزينة بالصور والرسوم

حقوق الطبع والترجمة محفوظة

الطبعة الاولى — الثمن ١٠٠ مل

طبع في مطبعة مكتبة فلسطين الجديدة بيافا

رسالتي

عيسى السفري

برنامج الحفاظ على الرواية

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

رسالتي

تأليف: عيسى السَّفري

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٣٧

عن مكتبة فلسطين الجديدة - يافا

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: عيسى السَّفري
اسم الكتاب: رسالتي
الطبعة الأولى: ١٩٣٧ عن مكتبة فلسطين الجديدة - يافا

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري
مراجعة وتدقيق: حنين خالد عِناية
الصف والتنضيد: شادية الخطيب
تصميم الغلاف: فاطمة حسين

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين

رسالتي

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

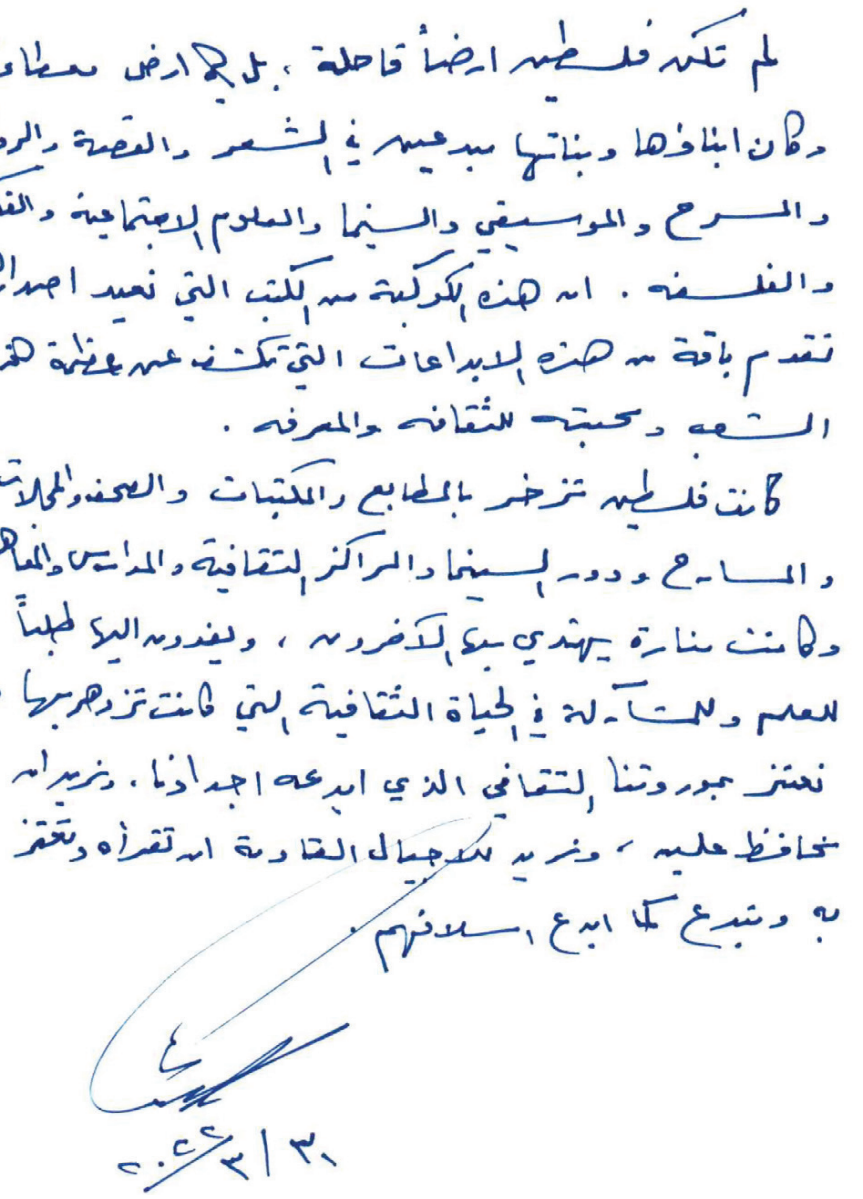

الإهداء

...

إلى؛

الذيـن تحرَّرتْ عقولُهم من قيود:

الوراثة

والبيئة

والنَّفس

واتَّجهـت أبصارهـم صوب المثل العليا في الحياة

أهدي هذا الكتاب

المقدِّمة

•••

هـذه رسـالتي أقدّمهـا إلى أبنـاء أمّتـي، وهـي بعـض مـا خطّـه قلمـي – في مناسـبات شـتّى – في الأدب والفـنّ والاجتـماع، فجـاء بعضهـا نـثرًا، والبعـض الآخـر شـعرًا منثـورًا، ومـا في كلا الاثنـين مـن خيـال وفكـر فقـد بنيتـه عـلى العاطفـة الصَّادقـة والأسـلوب المجـرّد مـن التَّلاعـب بـضروب الـكلام.

وفي رسـالتي هـذه دعـوة صريحـة إلى خلـق جيـل جديـد، حـرّ الفكـر، قـويّ البنيـة، محـبّ للجـمال، راغـب في التَّجـدُّد، فخـور بقوميَّتـه، معتـزّ بوطنـه، شـديد التَّسـاهل، بعيـد عـن التَّعصُّـب، طمـوح للمجـد، مؤمـن بالحيـاة!

فجديـر بنـا ونحـن عـلى عتبـة نهضتنـا أن نتَّجـه بأبصارنـا صـوب هـذه الأهـداف الشَّريفـة، وأن نجعلهـا دسـتور حياتنـا؛ لـكي نسـتحقّ أن نكـون أعضـاء عاملـين في جسـم الإنسـانيَّة.

ومـا قيمـة المـرء في حياتـه، إذا لم يكـن لـه هـدف شريـف يرمـي إليـه، ويضحّـي بالكثـير في سـبيله؟!

إنَّ الأهـداف الشَّريفـة ليسـت مـمَّا يسـتطاع الوصـول إليـه براحـة بـال واطمئنـان، وإنَّمـا يلـزم ناشـدها أن يحتمـل في سـبيلها آلام الحيـاة وأحزانهـا. والنُّفـوس الصَّحيحـة هـي التـي تقـوى عـلى احتـمال ذلـك؛ أمَّـا النُّفـوس السَّـقيمة، فهـي التـي تركـن عـن ضعـف إلى راحـة البـال الدَّائمـة، والاطمئنان المسـتمر!

فهـذا النَّـوع مـن النَّـاس الذيـن يكتفـون مـن الحيـاة بالبقـاء حيـث ولدتهـم أمّهاتهـم، لا يرجـى منهـم نفـع. أمَّـا المغامـرون، المؤمنـون بالحيـاة، فعـلى عواتقهـم تقـوم البشريَّـة اليـوم، وتنعـم بمـا تنعـم بـه مـن ديـن وأدب وحريَّـة واخـتراع واكتشـاف.

إنَّـا إذا آمنـا بالحيـاة أحببناهـا، ومتـى أحببنـا الحيـاة وجدنـا كلّ شيء فيهـا جميـلًا حتَّـى المـوت. فالحيـاة هـي مـيراث الإنسـانيَّة، ونحـن - كالنَّـاس - علينـا ألَّا نحتقـر هـذا المـيراث.

عيسى السّفري

بين فلسطين وشقيقاتها

«من الأوليَّات في فنّ السِّياسـة الحرَّة أنّ خلف كلّ اضطراب ظلامة!»

•••

(١)

جلسـت وحدي كأرملة، أنا العظيمة في الأمم،

وكثكلى فقدت بنيها!

قرح جفوني البكاء،

وكلـت عيناي من النظر إلى عوني الباطل،

أبت نفسي التعزية،

لأن حماي اسـتبيح، وبيع ميراثي للغرباء؟!...

إليّ يا شقيقاتي!

أغثننـي يا بنات أبي وأمي!

فقد سـدت في وجهي سبل النجاة! ...

(٢)

احتل القوي أرضي،

وملك شـذاذ الآفاق جوانب بيتي!

أمـا أبنـائي البعيدون عني، فيحنون للعودة إلي،

أريد أن أضمهم إلى صدري، فلا أستطيع،

لأن قوة تحول بيني وبينهم!

لا لشيء، سوى أنهم ليسوا من شعب اسرائيل!؟...

لم يجدني النوح يا شقيقاتي!

ولم يرفه عني البكاء، يا بنات أبي وأمي!

إن الطبيعة تكره الضعفاء!

(٣)

هيمن الغريب على مقدراتي،

وضع الأجنبي يده على منابع ثروتي!

أشتد القحط، وعم البلاء، وشمل الضيق كافة شعبي!

انتزعت من فم العامل لقمته،

ولم يجد الفلاح ما ينقذه من محنته!

لعبت شهوة المال بنفوس ضعيفي الإيمان من أبنائي، فسهلوا للدخيل «أرضي»

فلم يعد مكان لذراريّ !؟...

لا تجزعن يا شقيقاتي!

ولا تضطربن يا بنات أبي وأمي!

فلكل شيء حد لا يتعداه !...

(٤)

شـعب، تنبذه كل الشعوب،

يحل محل شـعب، تآمرت علية جميع الأمم!

فإذا ما تكلم، أخرسـته القوة،

وإذا ما صاح، صمت الأذان عن سـماع الحق.

حرم كل شيء، حتى حق التظاهر بالشـكوى!

لم يعد لكلمة عدل موضع في قاموس الإنسـانية؟!

لسـت يائسة يا شقيقاتي!

ولا مطمئنـة، يا بنات أبي وأمي!

فشـدة الضغط تولد الانفجار!

(٥)

هو ذا مدينة السـلام تفقد سلامها!

الأرض المقدسـة، تتمخض بالثورات!

لأن أبناءها يحكم عليهم بالتشريد، وأنسـالهم يسـلمون للفناء!؟...

تنهـد المهد، تزلزلت أركان الصخرة!

بكت جبالي دمًا،

رويـت أوديتي بالنجيع الأحمر!

زرعـت سـهولي، لا بغلـة وكـروم، بـل بقبـور الشـهداء؟!... اطربـن لي، يـا

شــقيقاتي!

هنئننــي بضحاياي، يا بنات أبي وأمي!

فقد شـقت أمامي طريق الحياة! ...

مجرمون

«أتـوق إلى نفـع أمتي، لا أتنفع مـن أمتي. أريد أن أكون واحة في صحراء لا نبتة طفيلية! ...»

جبران خليل جبران

•••

أركان المجتمع

لمـا كان الإنسـان الأول في حالـة بـداوة، لم يكـن يفقـه معنـى للوطـن والعائلـة والديـن. والسـبب في ذلـك أنـه كان متنقـلًا، لا يسـتقر في مـكان. يتغـذى بالجـذور والأعشـاب والأثمـار البريـة. ومـا بـدأ يتغـذى باللحـوم، إلا حينـما أصبـح صيـادًا، فادنـاه ذلـك مـن الاجتـماع. ولكنـه مـا زال يعيـش عريانًـا، لا يعـرف شـيئًا عـن الزراعـة. يجهـل القـراءة، ولا يعـرف مـن الديـن سـوى عفاريـت الغـاب. فـكان مـشردًا، لا مـكان يهـدأ إليـه، ولا صناعـة يمارسـها.

وحـين عـرف الإنسـان الزراعـة ابتـدأت حضارتـه، لأن الزراعـة تقـضي الإقامـة في مـكان لا متحـول عنـه، فـكان الوطـن. والإقامـة تسـتدعي السـكنى في كـوخ فبنـاه، فتكونـت العائلـة. وبتكـون الوطـن والعائلـة تمركـز الديـن، وغـدا نظامًـا اجتماعيًـا أخلاقيًـا يسـود كليهـما. إذن، أركان ثلاثـة يقـوم عليهـا المجتمـع:

(١) الوطـن (٢) العائلة (٣) الدين

في أي دور نحن؟

مـضى عـلى الإنسـان دور كان فيـه الديـن مسـيطرًا عـلى كل لـون مـن ألـوان حياتـه. في عملـه، في لعبـه، في أكلـه، في شربـه، في وحدتـه، في اجتماعـه، في حديثـه، في مخاطبتـه، في كل شيء. فكـم مـن حـروب طاحنـة نشـبت بـين شـعب وشـعب، كان سـببها الديـن، وكـم مـن ملاحـم داميـة وقعـت بـين أمـة وأمـة، كان مـذكي أوارهـا التعصـب للديـن!.

وكـما تعصـب الإنسـان لدينـه، تعصـب لعرضـه وغـار عليـه. والعـرض كان ولا يـزال عنـد أكـثر الأمـم أسـاس كل شرف، ومبعـث كل حماسـة. فالتعاسـة كل التعاسـة لإنسـان مـس عرضـه، والويـل كل الويـل لإنسـان أعتـدى عـلى عـرض غـيره، والتاريـخ قديمـه وحديثـه ينبئنـا بالكثـير مـن الفواجـع والمـآسي التـي نجمـت عـن هـذا وذاك!

وفي منتصـف القـرن المـاضي فقـط بـدأت الشـعوب الغربيـة تنـزع إلى جعـل الوطـن فـوق الديـن، وفـوق العـرض. وأخـذ الشـعور الوطنـي، أو النزعـة القوميـة، يسـود أفرادهـا. حتـى أصبـح شرف كل أمـة واسـتئهال كل شـعب للحيـاة، موقوفًـا عـلى مـا عنـد تلـك الأمـة مـن حـب للوطـن، وعـلى مقـدار مـا في نفـوس ذلـك الشـعب مـن شـعور بالكبريـاء القومـي، وطمـوح إلى الاسـتقلال.

هل نحن وطنيون؟

يجتاز عرب فلسطين اليوم، محنة لم يسبق لها نظير في تاريخ البشر أجمع. فالمستعمر يمنح، لأجل السياسة، بلادنا لشعب غريب عنا بالجنس، والدين، واللغة، والعادات، والأخلاق، والتقاليد. لشعب هاجمنا في عقر دارنا بالمال الذي هو سلاح المدنية الحاضرة. فماذا كان موقفنا أمام هذا الخطر الداهم؟

إن موقفنا لا شك كان موقفًا مزريًا، دل على قلة ما عندنا من شعور بحب الوطن، وعلى ضعف ما في نفوسنا من نزعة قومية. فأثبت أننا لا نزال بعد في مفترق الدورين، دور التعصب للدين، ودور الغيرة على العرض. أما الشعور بالدفاع عن الوطن فلم يتخذ بعد في نفوسنا شكلًا معينًا محدودًا. ولم تكن التضحيات الوطنية التي قمنا بها في الغالب إلا تضحيات فردية، الدافع فيها لم يكن متشابهًا في كل مرة!

إننا نغضب لديننا إذا أهين، ولعرضنا إذا مس، فلماذا لا نغضب لوطننا وقد استبيح، والوطن أساس كل عرض، وأساس كل دين؟!...

الواقع إننا في جميع ما قمنا به من الأعمال إلى الآن في هذا السبيل، لم نكن نافعي أمتنا، بل منتفعين منها. كما لم نكن نافعي وطننا، بل منتفعين منه. وهذا منتهى الخيانة للأمة، والعقوق بالوطن!

من المسؤول؟

لا جدال في أن الوضع الشاذ الذي وضعنا فيه، والسياسة القاهرة التي نساس بها، مسؤول عنهما الانتداب. فهما أصل البلاء، أو المعين الذي تستمد منه أنواع الإجرام الأخرى موادها الأولية.

أما السماسرة وباعة الوطن منا، فكل منهم يعتقد في قرارة نفسه بأنه مجرم، ولكنه ينتزع من ظروف حياته، وضعف وطنيته، وصغارة نفسه، فلسفة يبرر بها إجرامه. وهو لا يكتفي بهذا فحسب، بل يشجع غيره على الاجرام. ويتهم المخلصين من أبناء قومه بان مقاومتهم للبيوع والسمسرة، ناشئة عن أن ليس لهم ملك يبيعونه، أو أرض يسمسرون عليها. فشخص مثل هذا، إنما ينظر إلى غيره بمرآة نفسه. فهو ينطبق عليه قول القائل: «رمتني بدائها وانسلت!...»

إن المتاجرة بالوطن متاجرة بالعرض والدين. فإذا كانت حياة الإنسان أكلًا وشربًا وثراء، دون أن يكون له هدف أسمى يسعى إليه فبئست الحياة حياته. إنه مجرم «ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوى لهم»

مجرمون آخرون!

وهنـاك مجرمون من نوع آخر:

مجرمــون إلى لغتهــم، الذيــن يهملونهــا، ويرطنــون بلغتــي المســتعمر والدخيــل!

مجرمــون إلى قوميتهــم، الذيــن يحتقرونهــا، ويفاخــرون بالانتســاب إلى قوميــات الغــير!

مجرمـون إلى وطنهم، الذين يمالئون العدو، ويسـتخذون أمام الأجنبي!

مجرمـون إلى كيانهـم، الذيـن يكونـون للغـير دعـاة قـوة، ولأبنـاء قومهـم، دعـاة يـأس واستسـلام!

مجرمـون إلى الحـق، الذيـن يـرون المنكـر، ولا يدفعونـه بأيديهـم وألسـنتهم وقلوبهـم!

يقول بولس الرسول:

« إن كان الطعـام يعـثر أخـي، فلن أكل لحمًا إلى الأبد، لئلا أعثر أخي «

هدفنا في الحياة

لا نعيـش لذواتنـا، ولا نمـوت لذواتنـا. لأننـا إن عشـنا، فللوطـن نعيـش. وإن متنـا، فللوطـن نمـوت!

محبتنـا لوطننـا يجـب أن تكـون فـوق محبتنـا لعرضنـا وديننـا. فالـذي يهـون عليـه وطنـه، يهـون عليـه عرضـه ودينـه. لأن الوطـن أسـاس الجميـع.

ليكـن هدفنـا الأسـمى في هـذه الحيـاة اسـتقلال الوطـن، لأن اسـتقلاله. جـزء مـن الحـق. والإنسـان لا يمكنـه إن يخلـص عبـادة ربـه، ويحافـظ عـلى عرضـه، إلا إذا كان حـرًا مسـتقلًا.

انتداب

«قتـل امـرئ في غابـة جريمة لا تُغتَفَر

وقتل شـعب كامل مسـألة فيها نظر!»

•••

وطن

في الماضي القريب...

كان لنا أرض نقدسها،

وكان لنا وطن، نسـتقل به!

نسعد بترابه وهوائه،

ونستمتع بظله،

ونور شمسه!

لا يدعيـه دخيل، ولا يزاحمنا فيه أجنبي!

خرجنا من الحرب العامة، ونحن لا نملك من الدنيا سـواه!

جاء المنتدب وداسه،

سـيطر عليه، وانتهك حرمته! ...

سـلط علينا الدخيل، فاستباح حمانا،

انتزع منا الأرض، قدس أقداسـنا!

استغل فقرنا، فهاجمنا،

لا بسلاح، ولا بعتاد،

بـل بقوة المال هاجمنا!

طأطأنا الرأس للعجل الذهبي، وخررنا سـاجدين!

وكان صباح... وكان مساء...!

«أخلاق»

في الماضي القريب...

كنـا نتخلق بأخلاق طيبة،

وكنـا نمارس عادات قومية شريفة!

نكـبر الرجولة، ونحتقر التخنث!

نـأبى الضيم، ونغضب للحق!

نحب وطننا،

نقدسه، ونضن به!

كانـت فينـا بقيـة مـن شـجاعة الآبـاء، وبطولـة الأجـداد!... جـاء المنتـدب قهـرًا، وحكمنـا!

ساسـنا بسياسة استعمارية خطرة،

عطلت ضمائرنا. وأفسـدت نفوسنا!

تآمـر الدخيل على هدم كياننا،

بما أتى من شذوذ،

ومـا بث من مبادئ هدامة،

عصفت بأخلاقنا،

وهـوت برجولتنا إلى الحضيض!

وكان صباح... وكان مساء...!

«حكومة»

في الماضي القريب...

كانـت لنا حكومة معروفة،

وكان لنـا نوع من الحكم، مألوف!

بقسـط وافر، من مظاهره الاستقلالية، نتمتع،

وبعبء كبير، من مسـؤوليته، نضطلع!

دستور، برلمان،

مجالس إدارة، بلديات!...

جـاء المنتدب ليكمل، فنقص،

وعـد بتدريبنا على الحكم، فما بر

أنشـأ لنا إدارة غريبة،

لا أثر فيها لحرية، ولا معنى فيها لاسـتقلال!

قوانين تسن بلا رأي،

ضرائب تفرض بلا تمثيل!

إدارة، احتكرت لنفسـها الوظائف،

وحكومة، غصت دوائرها بكل غريب تحت الشـمس!...

سـألنا المنتدب، ما نوع هذا الحكم، فصمت!

فتشـنا عن أسـم نطلقه عليه، فلم نجد!

وكان صباح... وكان مسـاء...!

«زعامة»

في الماضي القريب...

كان لنـا زعامة محترمة،

مرهوبة الجانب، مسـموعة الكلمة!

يخشاها المنتدب،

ويحسب حسابها الدخيل!

كنـا بمجموعنا، كتلة غير منفصمة،

وبوطنيتنا، مثالًا يحتذى!

لكن الدسـائس عملت عملها،

ونجحت فينا سياسـة « فرق تسد «!

نالت منا عوامل الشـقاق،

وعنـاصر التفرقة، دبت فينا!

تعـددت ميولنا، واختلفت غاياتنا،

تفرقنا جماعات، وأحزابًا انتسـبنا!

تنافسـنا، ولكن في غير خدمة الوطن!

جماعة تهدم جماعة،

وحزب يعطل عمل حزب!

نظرنـا، وإذ بكتلتنا تتفكك،

وإذ بزعامتنـا، تتلاشى وتضمحل!

وكان صباح... وكان مسـاء ...!

«نتيجة»

نشط الخصم، ونمنا،

جمـع كلمته، وتفرقنا!

عن الدفاع عجزنا. وكشـعب، كدنا ننسى قضيتنا!

ضعف الحـق في أيدينا، فانتصرت عليه القوة،

غلب منطق السياسـة، منطق العدل! ...

استشـعر المنتدب فينا الهوان، فاستبد!

نـسي العهد، وأخلف بالوعود!

لـزم جانب الخصم، فطغى!

أغـضى ببـصره عـن الدخيـل، فتـمادى في الإجـرام! وطـئ القانـون، وعبـث بالنظـام!

بقحة، تحدانـا. وبجرأة منكرة، اعتدى علينا!...

مصائب سـوداء، وأحداث مزعجة،

كانت حصتنا فيها:

من الوطن، ضياعه!

ومن الأخلاق، انحلالها!

ومن الحكم، زواله!

ومن الزعامة، هوانها!

وكان صباح... وكان مساء...!

التَّجدُّد وأثره فينا

«العالم اليوم علامة استفهام كبرى، وقد أصبح النَّاس يغيّرون نظرهم في جميع الشُّؤون بلا استثناء، رغم أنّ أجدادنا كانوا يعتقدون بثباتها ودوامها»

جواهر لال نهرو

•••

مقدمة

اعتدنا إذا سألنا سائل «هل من جديد؟» أن نجيب بحكمة سليمان: «لا جديد تحت الشمس» والمشاهد أن العلم يأتينا كل يوم بجديد لم تره الشمس. وقد تعددت الاختراعات والاكتشافات في عصرنا الحاضر، حتى يكاد العقل يعجز عن استيعابها. وقد أقترح بعضهم أن يعقد العلماء هدنة يتمكن المجتمع من هضم ما لديه من الاختراعات! والمعروف اليوم، أن الراديو أعجوبة هذا العصر. وبواسطته أصبح الإنسان يستطيع وهو جالس في غرفته، أن يفهم ما يجري في العالم من حوادث وأخبار. ويسمع ما يلقى من خطب سياسية، وعظات دينية، ومحاضرات علمية وأدبية. ويشنف أذنيه بسماع ألحان شجية، في الحفلات الموسيقية. وسيأتي يوم، قرب أو بعد، يتحقق فيه ما هو أعظم من الراديو وأعجب. هو الحركة الفكرية. أو انتقال الأفكار من دماغ الواحد، إلى دماغ الآخر. فإذا تم هذا الاختراع، أصبح كل إنسان تلغرافًا لاسلكيًا بنفسه، يتلقى أفكار غيره رأسًا!

التجرد ناموس الحياة

إن الكـون بجملتـه وأجزائـه يتغـير مـن آن إلى آخـر. فجميـع الأجسـام في تحـول مسـتمر. وأظهـر مـا يكـون ذلـك في الأجسـام الحيـة، مثـل النباتـات والحيوانـات. فهـي لا تسـتقر عـلى حالـة واحـدة في دقيقتـين متواليتـين. لأن خلاياهـا في تجـدد واندثـار مسـتديمين، عـدا أنهـا تتأثـر بعوامـل البيئـة أيضًـا. إن التجـدد هـو نامـوس الحيـاة الرئيـسي، وإليـه تسـتند جميـع نواميـس الحيـاة.

ومـا دام الأمـر كذلـك، فمـن الواجـب عـلى الإنسـان إن يطـاوع هـذا التجـدد المسـيطر عـلى العـالم الـذي هـو جـزء منـه. وأن يسـير واياه جنبًـا إلى جنـب، لا أن يصطـدم بـه. لأن نتيجـة اصطـدام الإنسـان بنظـام التجـدد هـو العثـور، فالسـقوط، فالاندثـار. لأنـه قـاوم طبيعـة الكـون، وطبيعـة الكـون لا تقـاوم!

فـإذا كان الإنسـان كل بضـع سـنوات يتجـدد، بحيـث تتبـدل جميـع خلايـا جسـده، فـلا بـدع أن تتجـدد نزعاتـه وأفـكاره أيضًـا تبعًـا لفواعـل الأحـوال فيـه. فعلينـا إذن ألا نكتفـي بالتجـدد الحاصـل في أجسـامنا، إنـه حاصـل بالرغـم منـا. بـل أن نقرنـه بتجـدد في نزعاتنـا، وأفكارنـا، وأخلاقنـا، وألبسـتنا، واجتماعنـا، وآدابنـا العامـة. أو بمعنـى آخـر، يجـب أن تكـون أمنيتنـا الوحيـدة في الحيـاة، التجـدد المتواصـل في جميـع شـؤوننا.

وكـما أن التجـدد حاصـل في جميـع الأجسـام، ولا سـيما الإنسـان. كذلـك هـو حاصـل في الأنظمـة التـي بموجبهـا يسـير الإنسـان، والإنسـان لا يمكنـه

أن يعيش بلا نظام. فالأنظمة الدينية، والمدنية والاجتماعية، خاضعة لناموس التجدد في هذا العالم. وناموس التجدد، أن يتحرك كل شيء، وأن يتطور!

تقدم الأمم وتأخرها

المجتمع سائر إلى الأمام، وحضارته سائرة نحو التجدد والكمال - ولو عانت شيئًا من الانتكاس والرجعة ـ بالرغم من تشاؤم المتشائمين، الذين يقولون إن المجتمع البشري سائر في طريق التقهقر والانحطاط، وأن الدنيا « آخر وقت! «

يقول أحد علماء الاجتماع:

«إن العصور السالفة التي يقولون عنها أنها ذهبية، هي عصور حديدية، إذا قوبلت بعصرنا الحاضر. وإن الإنسان القديم بالنسبة لنا اليوم، كان يعيش كالبهائم عيشة وحشية خشنة!»

إن تقدم الأمم وتأخرها، لا يتوقف على مكانها ولونها وإنما يتوقف على أفكارها. فإن كانت الأمة متقدمة، كانت أفكارها متقدمة. وإن كانت الأمة متأخرة، كانت أفكارها متأخرة. فإذا أردنا أن نتقدم، فليس لنا إلا أن نتجدد في كل شيء.

يجب أن نحب الحياة لا أن نكرهها ونزهد فيها. ومتى أحببنا الحياة، وجدنا كل شيء فيها جميلًا، وسعينا في هدم كل ما يقف في سبيلها. إن القوانين، والتقاليد، والآدب، والأخلاق، والدين، ما هي إلا وسائل للحياة لا غايات لها. ولا يشفع فيها إلا أن تكون صالحة نافعة. فالحياة هي

ميراثنا الوحيد في هذه الدنيا، فعلينا ألاّ نحتقر هذا الميراث. ومن وضع يده على المحراث لا يلتفت إلى الوراء! ...

القيود التي تعوق التجرد

إننا إذا بحثنا عن الأسباب أو القيود التي تعوق تجددنا نجدها ثلاثة: (١) قيود الوراثة (٢) قيود البيئة (٣) قيود النفس. فنحن نسير في جميع أعمالنا، إما بدافع تقاليد ورثناها، أو قوانين وأنظمة ألفناها، أو ميول وعواطف لها أثرها في حياتنا. وهذه القيود الثلاثة، نتقبلها بدون بحث أو تفكير، وندافع عنها كأنها حقائق ثابتة. وإذا خطر في بال أحد منا، أن يحاول التخلص منها، جاءه الكبار العارفون من زواياهم المعتمة، حيث كانوا يقضون نهارهم في التأمل في صفحات خفية من كتاب قديم. يغمغمون بكلمات غريبة، تكون في كثير من الأوقات غير واضحة. كتبت قبل ألف عام، فاعتبرت هذه الكلمات مقدسة!... والناس في حالة جهلهم، يقدسون كل شيء قديم. والذين يجرؤون على معارضة حكمة الآباء، يتجنبهم جميع الناس الأبرار!؟...

الخلاف بين القديم والجديد

لا بد أن يكون كل منا أدرك، في حديثه مع والده أو والدته، أو جده أو جدته، عما يتعلق بأمور هذه الحياة، إنهم ينقمون على طرق حياتنا الحاضرة، ويهزأون بأساليبها قائلين:» أين حياتكم من حياتنا؟ وأنى لكم أن تعيشوا كما عشنا؟ ... زمانكم مثلكم!» نعم! زماننا مثلنا، وزمانهم مثلهم، وهكذا يجب أن يكون!

إن جهل الآباء والأجداد ناموس الحياة، جعلهم يطمئنون إلى ماضيهم، ويحنون إليه. ولو فهموه، لماشوا روح العصر، وساروا وفق مقتضياته. دون أن يشعروا بصعوبة الانتقال، والاصطدام بكل ما هو جديد- ورأوا أن الحياة تقدم وتجدد.

وبرهان آخر على ذلك، الخلاف الذي يبدو بأتم مظاهره بين الحماة والكنة. لعمري ما ذلك الخلاف، إلا صراع بين القديم والجديد. فالكنة تودُّ السير إلى الأمام في مجتمعها، وإدارة منزلها، وتربية أولادها، بحكم العصر الذي تعيش فيه. والحماة كالسرطان تود الرجوع إلى الوراء. وفي مشاكل الحياة ومصاعبها، تعمد إلى الطلاسم والسحر والرقى، وتستنجد بالأنبياء والقديسين. مسترضية إياهم بالنذور، وإنارة المشاعل والشموع. هذه في الكنائس، وتلك فوق السطوح! بينما الكنة - المتجددة طبعًا - تلجأ في حل مشاكلها الحياتية إلى العلم وحكمة رجال العصر. وهذا منشأ الخلاف بينهما.

في القوانين المدنية

والقوانين المدنية دائمة التجدد، لأنها شديدة التماس بحياة الناس على اختلاف طبقاتهم، وأجناسهم، وأديانهم. فهي كالمرآة تنعكس عنها نفسية الأمة وأخلاقها. فإذا لاحظت شدة وصرامة في قوانين أمة من الأمم، فأعلم أنهما ناتجان عن صلابة رقاب أفراد تلك الأمة! وفساد أخلاقهم وطبائعهم، والعكس بالعكس.

والقوانين المدنية في تجددها كانت ولا تزال مسخرة لنصرة الأقوياء وخدمة مصالحهم. ففي طور الديانات كان للدين أثره في القوانين

المدنيـة. وهـذه القوانـين بخدمتهـا الديـن، خدمـت رجـال الديـن، وهـم أقويـاء ذلـك العـصر. وفي طـور الفلسـفة تحـررت القوانـين المدنيـة نوعًـا مـن العبوديـة الدينيـة، وأخـذت تنضـوي تحـت لـواء المـادة شـيئًا فشـيئًا. وبذلـك أصبحـت تخـدم الديـن والمـال في آن واحـد. وبخدمتهـا الديـن والمـال، خدمـت الكهـان والمتمولـين، أقويـاء ذلـك العـصر. وفي هـذا الطـور - طـور المـادة - وهـو العـصر الـذي نعيـش فيـه اليـوم. اصطبغـت قوانـين المدنيـة بصبغـة الماديـة المطلقـة، وأصبحـت لا هـمّ لهـا سـوى خدمـة المـال وأصحـاب رؤوس المـال فقـط.

فالحـروب في عصرنـا الحـاضر تشـهر لأجـل المـال. والشـعوب المسـكينة تسـتعبد في سـبيل المـال. والغنـي يسـتبد بالفقـير للحصـول عـلى المـال. والقـوي يبتلـع الضعيـف بقـوة المـال. والأوطـان تسـلب مـن أصحابهـا بضغـط المـال. كل هـذا يجـري باسـم القانـون، فتأمـل!

في اللغة

التجـدد في اللغـة تبـدو لنـا مظاهـره فيـما نقـرأ مـن الكتـب الأدبيـة، ومـا نطالعـه مـن المجـلات الشـهرية والأسـبوعية. ولكـن لا يـزال لحـب القديـم والاغـراق في الصنعـة أثرهـا في أدبنـا الحديـث. وهـما عامـلان يمنعـان الأدب مـن التجـدد، ويجعـلان الأديـب يتلفـت دائمًـا إلى المـاضي. وإن يبـدد قـواه الفكريـة في انتقـاء الألفـاظ المهجـورة، التـي تجعـل لأدبـه أسـلوبًا خاصًـا جافًـا، يذهـب بالمعنـى المقصـود. ومـا التجـدد في الأدب سـوى أن يكـون صريحًـا عديـم المؤاربـة. غـير منحـصر في هيـكل اللغـة، وألفاظهـا، وصيغهـا، بـل يتعـدى إلى روحهـا وطريقـة التفكـير فيهـا. والاخـتراع في معالجـة

المواضيع القديمة، لإعطائها شيئًا من الجديد. فأدب طه حسين، وأحمد شوقي، وسلامه موسى، وخليل السكاكيني، وفؤاد البستاني، وغيرهم. هو أدب جديد، وأصحابه أدباء حقيقيون. لأنهم يضعون يدهم على المحراث، دون أن يلتفتوا إلى الوراء!

إن مطالعة أدب كهذا، يجدد الفكر، ويحرره من عبودية الأجيال. ويجعل الإنسان على اتصال تام بعصره، صالحًا للزمن الذي يعيش فيه.

في الملابس

الزي الأوروبي، هو الزي الذي يجب أن نتجه إليه في ألبستنا. لأنه أصبح زيًا عالميًا، وهو ثمرة الحضارة الراهنة. الحضارة التي غمرت الكثيرين منا، واكتسحت تقاليدنا القديمة، فاضطرتنا إلى تقليد الغربيين في لبسهم، والتزيي بزيهم. خلا الطربوش الذي ما زال محتفظًا بقداسته إلى اليوم!

ورب معترض يقول: « إن حالتنا الاقتصادية لا تمكننا من مجاراة الأوروبيين بألبستهم وأزيائهم.»

مجاراة الغربيين في ألبستهم وأزيائهم. هذا صحيح، ولكننا إذا علمنا أن الأقمشة شيء، والزي شيء آخر، استطعنا أن نتزيا بالزي الغربي، المصنوع من أقمشة توافق أثمانها جيوبنا. وهذا ميسور لكل واحد منا إذا أراد، وخصوصًا سيداتنا. لأنهن لسن أغنى وأرقى من السيدات الانكليزيات والالمانيات، العائشات بين ظهرانينا. اللواتي وهن غربيات،

يلبسن ألبسة أوروبية، مجموع ثمن لباس الواحدة منهن، لا يوازي ثمن قبعة سيدة من سيداتنا!!!

في العادات الاجتماعية

يمتاز الغربيون عنا بالتسامح. فلكل منهم حرية التفكير، ولكل منهم حق المجاهرة برأيه. فإن كان مصيبًا اتبعوه أو مخطئًا أهملوه. وناموس بقاء الأنسب، هو الحكم في صواب ذلك الرأي أو عدمه. إن الرأي إذا كان صالحًا أنتشر. أو إذا كان طالحًا، امحى واندثر. والتسامح وحده هو الذي يقود إلى التفكير الحر والصراحة المطلقة.

أما عندنا نحن الشرقيين، فالتسامح مفقود. وإذا خطر لأحدنا التكلم عن مذهب النشوء كفروه. أو دعا إلى تغيير بعض عاداتنا الاجتماعية رذلوه. أو علل الحوادث الطبيعية بغير العجائب، قالوا إنه ملحد. وهلم جرًا...

إن الغربيين يتجاهلون المرأة الساقطة، ويغضون الطرف عنها. أما نحن، فنسومها العذاب أشكالًا وألوانًا. هم يتجاهلون فتى يتأبط ذراع فتاة، ويتجنبون السير نحوهما، أو النظر إليهما، حتى لا يتدخلوا في حرية الأفراد. ونحن نسير وراءهما، ونرميها بقوارص الكلام. هم ينظرون إلى الرقص كفن، ونحن ننظر إليه كخلاعة!

إن المرء إذا نال قسطًا وافرًا من المدنية تسامح، ونجح في تهذيب غريزته الجنسية، وسهل عليه ترويض نفسه. بدليل أن البدو يقتلون الفتاة، إذا نظرت نظرة مريبة إلى شاب أجنبي. وسكان القرى من

الفلاحين، يكتفون على الغالب بضربها وتعذيبها. أما أهل المدن، فيقتصرون على لومها وتأنيبها. والحكومات في العصر الحاضر، تعاقب الرجل في حالة قتله زوجته حتى ولو كانت متلبسة بجريمة الزنى.

في آدابنا العامة

آدابنا العامة مظهر من مظاهرنا الاجتماعية، تنم على قوة أخلاقنا أو ضعفها. على سموها أو انحطاطها. إن من آدابنا، أن نجعل ضيفنا، أو أي إنسان ضمه مجلسنا، يشعر بارتياح نحونا. فلا نتودد إليه، ولا نتذلل له. ولا نبدي له بلساننا من الإكرام والود ما ليس في قلوبنا. ذلك لا يكون في الإفراط في المجاملة، والمغالاة في الكرم. لئلا يحسب ذلك جبنًا وملقًا، ونوقع الغير في حيرة وارتباك!

إن عادة إكرام الضيف عندنا نحن سكان المدن، قد أخرجناها عن الغاية المقصودة منها. فقد كان أجدادنا العرب، سكان البادية، ولا يزالون يأوون الضيف ويكرمونه. مدفوعين بدافع إنساني محض، اضطرتهم إليه ظروفهم القاسية في البادية، وعدم استقرارهم على حال. وطبيعة أراضيهم الصحراوية القاحلة، وخلوها من العمران. بدليل أن هذه العادة قليلة الاستعمال في القرية لقربها من المدينة. وتكاد تكون معدومة في المدينة، لوجود الفنادق والمطاعم فيها.

ولا يظنن أحد، أن الكرم محصور بنا نحن العرب. فإن سكان الأصقاع الشمالية الجليدية كالأسكيمو مثلًا، هم كرماء مثلنا، أو هم أشد كرمًا منا. فالعائلة الواحدة هناك، عندما يفرغ زادها، تحل بجملتها على

عائلة أخرى. تأكل وتشرب، إلى أن يقيض الله لها صيدًا جديدًا تقتات به.

إن عادة إكرام الضيف، عند العرب في البادية، وعند الاسكيمو في الأصقاع الجليدية، عادة إنسانية محضة - كما قلنا - اضطرتهم طبيعة بلادهم إلى الأخذ بها، حفظًا لبقائهم. أما في المدينة، فهي عادة لا نجريها لشخص ما، إلا في ظروف خاصة لنا منها في الغالب مأرب نتوخاه، أو غاية نقصدها. على مبدأ: « أطعم الفم، تستح العين!»

إن الإفراط في المجاملة، والمغالاة في الكرم، من الأخلاق غير الحسنة. والبساطة في أعمالنا وتصرفاتنا، أقرب للفطرة، وأوقع في النفس.

في حياتنا البينية

البيت معبد العائلة، فهو مقدس. يأوي إليه الرجل مساء للاستراحة من عناء النهار. وكما أن جمال المعبد يحببنا إلى المعبد، كذلك جمال البيت يحببنا إلى البيت، والساكنين فيه. وجمال البيت يكون بنظافته، وحسن الذوق في ترتيب أثاثه.

كثيرًا ما نترك البيت مساء، ونقضي سهراتنا في المقاهي، ومحلات اللهو، فلا نعود إليه إلا وقت النوم. لا لسبب، سوى أن غير مريح، وغير مرتب، وغير نظيف. تلك حقيقة مؤلمة، وإن كنا لا نشعر بها!

الزوجة هي المسؤولة عن إدارة البيت. إذن، فعليها أن تعتني به عناية خاصة، وأن تجعل التجدد يتطرق إلى جميع محتوياته لكي يظهر جميلًا جذابًا. وحينئذ يحب الرجل البيت، ويجد فيه راحته، ولذة بالاجتماع

إلى زوجـه، وأولاده، وأفـراد عائلتـه. ومتـى أحببنـا البيـت، أحببنـا الوطـن. لأن محبـة الوطـن، تبتـدئ بمحبـة البيـت أولًا. ومـا البيـت إلا جـزء صغـير مـن الوطـن.

في الدين

الأمـم بأخلاقهـا. والديـن نظـام اجتماعـي أساسـه الأخـلاق. فهـو ضروري لـكل أمـة. وكـما أن كل نظـام في العـالم يتأثـر بفعـل التجـدد، كذلـك الديـن، فللتجـدد أثـر فيـه وإن كان بطيئًـا.

في القديـم خـاف الإنسـان المـادة فعبدهـا، ثـم ألههـا. ولـو لم يقـم في كل عـصر، مـن اختمـرت فيـه عقيـدة هـدم القديـم، أو إكمالـه. لمـا وصلـت البشريـة إلى حالتهـا الحـاضرة، ولظـل الفـرد عاكفًـا عـلى عبـادة اللـه، لا كـما يوحـي لـه عقلـه ونفسـه، بـل كـما توحـي لـه غرائـزه ومطالبـه الجسـدية!

انظـر إلى التاريـخ، ودقـق في الأطـوار التـي مـرت عـلى أديـان البـشر، تـر أن التجـدد شـملها كـما شـمل المـادة. فمـن عبـادة النجـوم. إلى عبـادة النـار. إلى عبـادة الأرواح. إلى عبـادة الأحجـار والأشـجار والحيوانـات. إلى عبـادة الأصنـام التـي انتهـت بالتوحيـد، وعبـادة الإلـه الواحـد غـير المنظـور. منتقلـة مـن الأنانيـة إلى الغيريـة.

هكـذا تطـورت الأديـان، وغـزا بعضهـا بعضًـا. فالتطـور الدينـي اليهـودي، غـزا عبـادة المـادة. والتطـور الدينـي المسـيحي غـزا الهيـكل اليهـودي، وركـز رمـز المسـيحية فـوق قـدس أقداسـه.

والتطـور الدينـي الإسـلامي غـزا عبـادة الأوثـان ونصـب علـم التوحيـد فـوق

الكعبة. ولأن هذه الأديان خرجت من دائرة علاقة الإنسان بالكون، وتدخلت في أموره العالمية. وللصبغة المقدسة التي اصطبغت بها، فقد بقيت لا تقبل تغييرًا، لأن كل تغيير فيها يعد بدعة!

ولذلك أصبح الأنانيون، الذين يستغلون الدين كثيرين. وكلما فكر المخلصون المجردون عن الأنانية، بالتخلص من تقاليد بالية لا دخل لها في جوهر الدين. قام أولئك الأنانيون يتحمسون لها. لأنهم لا يستطيعون أن ينهبوا إلا من أولئك الاتقياء، الذين يتورعون عن مساس حقوق الغير. والاتقياء في كل دين هم دائمًا فريسة هؤلاء الطماعين، النهابين، المستغلين! ...

في الوطنية

وكما يوجد في الدين مستغلون، كذلك يوجد في الوطن مستغلون. فهم يدعون الوطنية، ويحضون عليها بألفاظ ضخمة جذابة، ويتشدقون بتضحية كل مرتخص وغال في سبيل الوطن. ليحصلوا على ثقة الأمة بهم. ومتى حصلوا عليها، شرعوا يستغلونها في سبيل أطماعهم ومنافعهم الذاتية!

إن خدمة الدين والوطن، لا يستطيع القيام بها إلا المخلصون المترفعون عن الأنانية. وما نراه من سوس التأخر الذي ينخر في مجتمعنا المدني والديني، سببه عدم إخلاص الزعماء والرؤساء للمبدأ الذي نهى عن الأنانية. ولم يكتفوا بهذا، بل عمدوا إلى تسخير المبدأ نفسه لخدمتهم. وكأني بهم أرادوا أن يرجعوا الأمر إلى حلقته الأولى، إلى الأنانية!

إن كل شخص يكثر من التشدق بحب الدين والوطن، بمناسبة أو بغير مناسبة، هو الذي يجب أن نحذره! فهو لكونه لا يقدر أن يكون مخلصًا للدين والوطن بأعماله، يحاول أن يتظاهر بالإخلاص لهما بأقواله. فمثله في ذلك مثل رجل يشعر من نفسه بأنه كاذب، فيعمد إلى حلف الإيمان المغلظة لكي يصدقه الناس!

وفي حالة مثل هذه، يجب ألا نكون بسطاء، ومتنطعين في الدين والوطنية. لئلا نكون يومًا ما فريسة للخداعين الطماعين. إنه حيث يوجد أبرار، يوجد أشرار أيضًا. لأن هؤلاء يعيشون على حساب أولئك!

إن الزعيم الحقيقي لا يحتاج إلى دعاية يكتسب بها ثقة الناس. وإنما نور الإخلاص والصدق الذي ينبعث من هالة القداسة المحيطة بوجهه، يجذبهم إليه فيحومون حوله، ويموتون تحت لوائه. كما يجذب الفراش نور المصباح، فيحوم حوله ويحترق بنوره! إنني أعتقد بأن ظروف الحال تدعونا إلى الميل بكليتنا نحو التجدد في كل شيء. واقتباس المدنية الغربية كاملة، لأنها وحدة لا تتجزأ. فهي أشبه شيء بالمركب الكيماوي المؤلف من عدة عناصر مختلفة، إذا نزع منه عنصر واحد انحل التركيب، وخسر المركب جميع خصائصه وميزاته. بهذا يمكننا أن نعيش عيشة سعيدة، أو على الأقل غير شقية، بعيدة عن التعصب والجمود بحيث ينتفع منا العالم كما ننتفع به.

بعد المعركة

«إن أرض الجهاد مفروشـة بالأشـواك، وطريق المجد خلو من الرياحين والورود!...».

•••

(١)

لـكل أمة، حق في الحياة،

ولكل شـعب، هدف يسعى إليه!

وهدفنا - نحن العرب - أن نحيا أحرارًا مسـتقلين!

بهذا الأمل عشنا،

وعـلى هذا الرجاء، انتفضنا على الترك،

ثُرنا على دولة عشـنا في ظلالها أربعة قرون!

خضنا غمار الحرب!

اشـتركنا مع الحلفاء، في هذه المجزرة الكبرى!

فكنا وقودها!...

كان وعود!

وكان عهود؟!....

(٢)

وضعت الحرب أوزارها،

وجـاء دور توزيع الحقوق!

فـكان نصيبنا، نصيب حنين!

وكان جزاؤنا، جزاء سنمار!

أعطوا وطننا للغريب،

واستقلالنا، أبدلوه بانتداب!...

فيا دعاة حرية الأمم!

ويا أيها المنادون بإنصاف الشـعوب المظلومة!

تعالوا وانظروا!

أنظـروا إلى العهود كيف تنقض!

وإلى الدول، كيف تخون؟!...

(٣)

احتججنا،

وبلغ احتجاجنا عنان السـماء!

أضربنا،

وشـمل الإضراب جميع مرافق حياتنا!

تظاهرنا،

وعـم التظاهر المدن والقرى!

بعثناهـا صيحـات داويات، في جميع أنحاء البلاد!

مـا كان قصدنا الإخلال بالأمن العام،

ولا غرضنـا الاعتداء على أحد!

وإنما هـي طريق، ألجأنا إليها الضيق!

فعبرنا بها عما في نفوسـنا من مرارة!...

فهـم ذلك الأجنبي والدخيل،

القريب والبعيد!

أما حكومة الانتداب، فلم تشـأ أن تفهم؟!...

(٤)

خمس عشرة سـنة، ونحن نذل،

نسـتغل لمصلحة المستعمر!

أثقلـت كواهلنا الضرائب، ولا من يمثلنا!

حكمنا بقوانين شـاذة، لا رأي لنا بها!

أحصت علينا الأنفاس،

وقيدت منا العواطف والشـعور!...

سـألنا المنتدب حقنا، فتجاهل،

طالبناه باسـتقلالنا، فأنكره علينا!

تظاهرنـا لـه ببـث الشـكوى، فقابلنـا بالحديـد والنـار! اصطـدم الشـعب الأعـزل، بالقـوة المسـلحة!

فسـقط قتلى، ووقع جرحى!

قتـلى، امتلأت بهم القبور،

وجرحى، غصت المستشفيات!

ذاعت مصائبنا بين الشـعوب،

وفهمـت مظالمنا الأمم كلها!

أما حكومة الانتداب، فلم تشـأ أن تفهم؟!...

(٥)

سيق رجالاتنا للمحاكم!

وأمـام القضاء، مثل أحرارنا!

اتهموا مثل أشقياء،

ومثل مجرمين، حوكموا!

لم نكـن نظن أن الدفاع عن الوطن بدعة،

والمطالبة بالحق، جريمـة يعاقب عليها القانون!

إلى السجن، أيها الأحرار!

ادخلوه، ولا تخشـوا ظلمته!

فمـن ثنايا الظالمة، يبزغ النور!

ومن جدران السـجن، تبعث الحرية؟!

بغداد الحزينة

«من ذا الآتي السحب، يا بغداد!... المحمول إليك على أجنحة الريح؟!»

•••

(١)

ماذا أنت فيه يا بغداد!

وعلام تعجبين بالخلق، وتزدحمين بالوفود، يا مدينة

السلام؟!

علام هذا القلق والاضطراب؟

هل من عظيم يطأ ثراك، فتخرجي لاستقباله؟

هل من فاتح تترقبين قدومه، فتتوجيه بأكاليل الغار، وترفعي له لواء النصر والظفر؟!

ما بالكم أيها الناس تشخصون بعيونكم إلى السماء، وتحدقون في طيات الأثير؟

هل من نجم غريب ظهر في الأفق فخرجتم تتدفقون كالسيل،

يمتعون الأبصار برؤيته؟!

مالي أرى الوجوه كاسفة، والقلوب واجمة، والنفوس جزعة، والدموع منهمرة؟

إنها دموع الحزن والأسى!

إنها دموع الخوف والوجل!

وهل هناك فاجعة، تداول لها سـمع المرء أثمله العشر؟

هـل قرئ المكتوب في لوح القدر؟!

***

بغداد

من ذا الآتي مع السـحب، المحمول إليك على أجنحة الريح؟

مـن ذا النسر المحلـق في الفضاء، الهابط عليك من الجو؟

من ذا الكوكب الهاوي إلى الأرض، من أعالي السـماء؟!...

أنظـروا... فهو في وقار الخلفاء، وجلال الملوك!

هو سـيد العرب، وعزهم، وفخرهم!

حيُّوه... فهو مطلق الرصاصة الأولى في سـبيل الثورة

على الظلم!

عظموه... فهو محطم قيود الذل والاسـتعباد!

اسـتقبلوه... فهو باعث مجـد العرب، ورمز أمانيهم القومية!

ابكـوه... فهو الجندي الصادق، المجاهد في الحصول على اسـتقلال بلاده!

بالإجلال شـيعوه... فهو الابن البار، المضحي بنفسـه سـبيل تحرير أمته!

هو خليفة هرون الرشـيد!

هـو ملكك المتوج يا بغداد!

هو فيصل!...

***

مـات فيصل... وبموتـه ضرب لنا المثل الأعلى للتضحية!

قـضى فيصـل... وهـو مخلـص لعقيدتـه، مؤمـن بصـدق دعوتـه، موقـن بصحـة رسـالته؟

ذهـب فيصـل... بعـد أن جاهـد عشريـن سـنة. برهـن فيهـا للملأ، أن العـرب أمـة لا تمـوت. وأنهـا خلقـت للحيـاة...

فالحيـاة صحيفـة يخطهـا المـرء بأنملـه. ومـن الصحائـف مـا يطـوى، ومنهـا مـا ينـشر للعـبرة والذكـرى!

وصحيفـة مليكنا، خليق بهـا أن تنشر. فإنها صحيفة خالدة،

خطـت فيها آيات المجد والشرف!

فأكبريـه أيتها الأمة العربية، فهو:

أبو بكرك في حزمه،

عمرك في عدله،

عثمانك في تقواه،

عليّك في شجاعته،

خالدك في فتوحه!...

مات فيصل... ففي القلوب رمسـه، وفي النفوس عرشـه!

إن تسـل أين قبور العظماء

فعـلى الافواه أو في الأنفس

***

وأنت يا بغداد!

رمـز مدنية العرب ومجدهم!

هـو ذا ملكك يأتيـك محمولًا على متن الهواء، ليرقد في تربتك!

احتفظي بهذه الوديعة المقدسـة،

إنها ذخيرة العرب والإسلام!

فيصل الثَّائر

«حيـاة العظيم موشـور متعدد النواحـي، وفي كل ناحية من نواحيه ترى أثر البطولـة والعظمـة. ولفقيدنا العظيم المغفور له فيصل ملك العراق، شـخصية عجيبـة، جديـرة بالدرس والتحليل. وما تاريخـه إلا تاريخ أمة بأجمعها. ولهذه الشـخصية الفذة نواح متعددة، نأتي على أربع منها، كانت أشـد بروزًا وأبعد أثرًا في حياته»

•••

(١)

في سـنة ١٣٠٢ للهجرة، ولدَ فيصل.

بـزغ ذيـا لـك النجـم في مكـة المكرمـة، فـكان سـاطعًا. وأنـار الجزيـرة العربيـة مـن أقصاهـا إلى أقصاهـا!

عـاش في الصحـراء، فغدته لبان الرجولة، وأوحت إلى نفسـه سر العظمة!

عودتـه رمالهـا المحرقـة الصـبر والجلـد. وأديمهـا الصـافي، كـون في نفسـه سـعة الصـدر، وطهـارة الوجـدان!

كانـت الصحـراء بفضائهـا الرحـب مبعـث أملـه، وبهوائهـا الطلـق، مشـم حريتـه!

بـين البـدو أقـام، فاقتبـس تقاليدهـم. تمـرن عـلى إطـلاق النـار، وضرب السـيف!

فنشـأ حرًا، يأبى الضيم، ويعاف الظلم!

عـز عليـه أن يـرى أمتـه ترسـف في قيـود الـذل والاسـتعباد، وأحرارهـا يعلقـون عـلى أعـواد المشـانق! وشـعر بهاتـف يناديـه:

« أن قم وأد الرسـالة «

فثار!

وظـل ثائرًا كل أدوار حياته!...

***

كان ثائرًا:

يوم شـق عصا الطاعة على دولة الخلافة، ورفع لواء الثورة في الجزيرة!

يوم دعا قومه العرب إلى الجهاد في سـبيل تحرير الوطن المسـتعبد!

يـوم وضـع نـواة جيشـه - جيـش الخـلاص - فقـاده، مقتحـمًا ـ صفـوف الأتـراك. حتـى أشرف عـلى دمشـق عاصمـة الأمويـين، فدخلهـا ظافـرًا منتصرًا!

يـوم نـودي بـه ملـكًا عـلى سـوريا، وأرسـل جيشـه لمقاتلة جيـوش الفرنسـيس، الذيـن أنكـروا عليـه حـق الملـك! يـوم تسـنم عـرش الرشـيد، بعـد أن تعـذر عليـه اسـترجاع عـرش أميـة

يوم ألغى الانتداب على العراق، وأنتزع اسـتقلاله من يد الغاصب!

يـوم أدخل العراق عضوًا في جامعة الأمم!

يـوم كان يتنقـل بين عواصم الغـرب، للدفاع عن قضية العرب عامة!

يـوم أخمـد بجيشـه الباسـل نـيران الثـورة، التـي أشـعلها الآشـوريون في أنحـاء مملكتـه!

ولكـن، مـا كان جسـم فيصـل النحيـل ليحتمـل ثـورة نفسـه في تحقيـق مطامعـه، فقـضى!

وأفل ذلك النجم، الذي ظل يشـع في أفق العروبة خمسـين سنة!

أمـا نفسـه الثائـرة، فحلقـت في فضـاء اللانهايـة! ... وهكـذا عـاش قائدنـا ثائـرًا، ومـات ثائـرًا!

وأعظـم بها ثورة، أعادت للعرب مجدهم؟!...

هـل من نجم غريب ظهر في الأفق فخرجتم تتدفقون كالسـيل،

يمتعون الأبصار برؤيته؟!

مـالي أرى الوجـوه كاسـفة، والقلـوب واجمـة، والنفـوس جزعـة، والدمـوع منهمـرة؟

فيصل السِّياسيّ

•••

(٢)

«صديق وفي!

شخصية جذابة!

رجل مستقيم!

جندي صادق!

سياسي قدير!»

كلمات للفيلد مارشال اللورد اللنبي فاتح فلسطين، يصف فيها فقيدنا المرحوم فيصل.

وشهادة العظيم عظيمة!

***

ابتدأت شهرة فيصل السياسية، يوم ولاه المرحوم والده قيادة الغزوات، لإخضاع القبائل وتأديبها. ثم باجتماعه إلى رجالات العرب في سوريا، يوم تمخضت بالثورة على الترك.

وقد أبدى فيصل في قيادة الثورة مهارة فائقة في ضم القبائل العربية تحت لوائه، وسياسة حازمة في توحيد نزعاتها المختلفة.

يتجلى لك حزمه ليلة ثار رجال عقيل (في رابغ) على قائدهم أبن

عقيل وقامت العشيرة كلها متجهة إلى (ينبع) لمحاربة قبيلة عتيبة عدوتها. بلغ ذلك فيصل، فأسرع حافي القدمين حتى صار في وسط الثائرين. فقتل الثائر، وأقال القائد. وأطفأ نيران ثورة بين القبائل، لو اندلعت لقضت على فيصل وجهوده! وقد خولت فيصل أخلاقه السامية نفوذًا بين الطبقات الحاكمة، وأكسبه احتكاكه بساسة الغرب مرونة، كانت العامل الأكبر في نجاح سياسته العربية الراهنة.

ما كان حلم الإمبراطورية العربية ليختفي من أمام عينيه. وفي الوقت ذاته كان يشعر في أن العرب لا يمكنهم أن يسيروا على سياسة مستقلة عن سياسة الغرب!

علمه سقوط عرشه في دمشق كيف يستغل الظروف لمصلحة أمته. فكان يسير في أعماله بتؤدة وحزم. يسدد كل خطوة، ويقدر بنظره البعيد مبلغ قوته وقوة الأمة التي يرتكز عليها، في وضع نواة الإمبراطورية العربية!

فسعى في توحيد القوى العاملة لإنشاء السياسة العربية الجديدة، متجنبًا ما اعتورها سابقًا من الأخطاء. وهو كسياسي محنك، قضى على جميع العراقيل التي كانت تحول دون أمنيته. واستطاع بمرونته السياسية، وخبرته الديبلوماسية، أن يحقق تلك الأمنية!

كان سريع الخاطر! لا يمر به حادث دون أن يعلق عليه بنكتة تدل على مبلغ كياسته وظرفه:

قيل إنه لما رفض مؤتمر الصلح في باريس أجابته إلى طلبه بشأن القضية العربية قال مازحًا:

« أرى أن أعضاء المؤتمر في اجتماعهم هذا، يشبهون قافلة تسير في الصحراء، وكل بعير آخذ بذنب الآخر. فإذا ما نظرت إلى رأس القافلة وجدت حمارًا صغيرًا يقودها!»

كان صريحًا، يكبر حرية الرأي.

وجد مرة في مصر، فطلب إلى فكري أباظة أن يهديه مجموعة مقالاته. وكان بعضها يتضمن طعنًا مرًا بالملك حسين والده، فحار فكري. ولحظ فيصل منه ذلك فقال:

«أرسلها ولا تقطع من أوراقها شيئًا، فإني سأتبع تسلسل الصفحات، ولن يضيرك أن تكون ذا رأي في الناس فأنت حر. وأنا أكبر حرية الرأي!»

ونظم الشاعر العراقي السيد معروف الرصافي قصيدة عرض بها بالملك فيصل جاء فيها:

«وليس له من أمرهم غير أنه

يعدد أيامًا ويقبض راتبًا!»

ولما سعى ياسين باشا الهاشمي في إصلاح ذات البين بين الشاعر والملك، وأدخله عليه. قال له فيصل:

« يا هذا!... أأنا الذي يعدد أيامًا ويقبض راتبًا!»

قال: هكذا يقولون!

فهش له وبش، وزال ما بينهما من جفاء.

كان معتدلًا، بعيدًا عن التطرف. واعتداله هذا كان سببًا في مقاومة

الأحـزاب المتطرفـة لـه في تنفيـذ سياسـته.

وكان ـ وهـو العـربي المخلـص، والوطنـي الصميـم - تؤلمـه تلـك المقاومـة. فدفعـه الألم لأن يكتـب مـرة إلى أحـد أصدقائـه يقـول:

« إننـي أجـد صعوبـة وعراقيـل مـن زعـماء العـرب في تحقيـق الأمـاني القوميـة أكـثر مـما أجـد مـن الأجنبـي!... ولقـد أتعبنـي أبنـاء قومـي أكـثر مـن المسـتعمرين!»

هكـذا كان موقـف الأحـزاب والزعـماء منـه. ولكنـه أسـتطاع - بصـبره وجلـده، ومـا اوتيـه مـن الفطنـة والاعتـدال – مـداورة وزرائـه، وتصريـف الأحـزاب السياسـية المختلفـة في مصلحـة وطنـه وأمتـه.

عظيم فيصل!...

وحّد أمة مبعثرة!

وأسـس مملكة يتطلع إليها العرب من وراء سـبعة أجيال!

همـس في أذن التاريخ، ففتح له صحيفته!

فخـط فيها آيات مجد وشرف!...

فيصل الملك

•••

(٣)

فيصل كملك، من أعظم الملوك الذين ظهروا في الشرق، منذ عهد هرون الرشيد!

لم تغره مظاهر الملك. والسلطان لم يغير شيئًا من نفسه!

فتش في كتب التاريخ، وأقرأ سير الملوك، تجد أن مظاهر العظمة والسلطان كانت تحوط بهم، أينما ساروا وحلوا.

حرس وجنود، مشاة وفرسان!

رايات وأعلام!

عجلة فخمة تجرها الجياد!

نافخ في البوق ينادي: « إن قد جاء الملك!» قصورهم غاصة بكل علق فاخر ثمين!...

أما مليكنا، فقد كان خلوا من ذلك، ديموقراطيًا في كل مظاهره!

يخرج بدون حرس. لا ساقة خلفه، ولا طليعة بين يديه! لا تميزه وهو بلباسه العربي عن باقي البدو، وبلباسه الإفرنجي عن باقي الحضر!

إذا نظرت إليه أثار فيك شعور البطولة والإعجاب!... كان وهو يقود سيارته بنفسه، أروع من كسرى على عرشه!

قـصره أقـرب إلى القصـور العاديـة، منـه إلى قصـور الملـوك. أليـس هـو القائـل:

« أريـد أن أبنـي مملكتي، قبل أن أبني قصري؟!...»

كان يقابـل وزراءه وكبـار موظفيـه بملابسـه العاديـة. وهـذا شـأنه مـع زائريـه!

يسـمع بنفسـه شـكاوى رعيتـه، الفقـراء والأغنيـاء، الحقيريـن والعظـماء. فيشـعرون بأنـه لهـم عـلى السـواء!

سـار في حكمـه مهتديًـا بوحـي الضمـير، ومصلحـة البـلاد العربيـة. كان عظيـمًا في تفكـيره، مجـدًا في عملـه، عصريًـا في وجهـات نظـره!

يكـره الألقـاب وينفـر منهـا. وينـادي وزراءه والملتفـين حولـه بأسـمائهم المجـردة!

فـكان مثال الديموقراطية الحقة!

لم ينسـه التاج مهمته، والصولجـان لم يلهه عن قيامه بالواجب!

لم يرصـع عرشـه بـدرر وجواهـر، بـل بأعـمال خالـدة، أجملتهـا كلماتـه الأخـيرة:

« أنا مستريح!

قمت بواجبي!

خدمت أمتي ووطني!

ليـسر الشـعب بعـدي عـلى خطتـي، متمسـكًا بالاتحـاد!» كلـمات مثـل هـذه هـي مـن جوامـع الكلـم، التـي يجـب أن تسـجل بمـداد القلـب، عـلى صفحـات الصـدور!

كان فيصـل - قبـل التـاج وبعـده ـ جنديًـا. وكجنـدي صـادق ظـل في المعركـة إلى النهايـة!

هكـذا يجب أن يكون الملوك!؟

فيصل الإنسان

•••

(٤)

النـاس مـن أب واحـد، وجبلـة واحـدة. ولكنهـم يتفاضلـون في مقـدار مـا في الواحـد منهـم مـن صفـات إنسـانية!

وفيصـل من هذه الجهة كان إنسـانًا بـكل ما في هذه الكلمة من معنى!

لم يحـل نسـبه الهاشـمي دون احترامـه النـاس. ولم تمنعـه ارومتـه العريقـة في الـشرف، مـن أن يكـون أخًـا لـكل إنسـان!

وديع مثل حمل!

أمـين مثل ضوء النهار!... كـما قال عنه الكولونيل لورانس

مخلـص في صداقته. صادق في محبته!

جـاءه يومًـا ـ وهـو في المستشـفى لإجـراء عمليـة جراحيـة ـ الـسر بـرسي كوكـس المعتمـد البريطـاني. وعـرض عليـه ورقـة طالبًـا توقيعـه عليهـا. فقرأهـا ثـم أعادهـا إليـه وقـال:

«لا أوقـع مثـل هـذه الورقـة، وأنـا بـين المـوت والحيـاة. ولا أختـم حيـاتي بتشريـد العـرب أصدقـائي!»

كان ذلـك بعـد سـنة مـن تنصيبـه ملـكًا عـلى العـراق. وكانـت الاضطرابـات تهـدد العـراق، والأحـزاب متفقـة عـلى مناوءة سياسـة الإنكليـز!

كان مثال الرقة واللطف. وكان تواضعه قوة مغناطيسية تجذب القلوب إليه!

لا تفارق الابتسامة الحلوة وجهه، ولا تبخل بالكلام العذب شفتاه!...

استأذنه مرة أحد جنود الثورة في وقت كان فيه بأشد الحاجة إلى الرجال، أن يذهب لعيادة والدته المريضة، فإذن له. ثم زوده بالكلمات الآتية، التي هي الحنوُّ بعينه:

«يجب أن تسهر على راحة والدتك، فإن البر بالوالدين من أقدس الواجبات. فأذهب وعد إلينا عندما تسمح لك والدتك بالعودة. وإذا لم تسمح، فابق بقربها ولا تخالف لها أمرًا!»

كان صديقًا، يحب في كل وقت. يمد يده لمصافحة كل إنسان!

كانت غايته في حياته، التوفيق بين ملوك العرب والتآخي بين زعمائهم!

لم تكن عداوة أبن السعود للمرحوم والده، لتؤثر في طيبة نفسه وإخلاصه للعرب. فكان رسول سلام بينه وبين الإمام يحيى.

ولما التقى بخصمه الجنرال غورو - الذي حرمه عرش دمشق - في فرساي، تقدم منه باسمًا وقال:

« لقد تلاقينا أخيرًا!... «

***

خمس دعائم كانت تستند إليها عظمة فيصل:

نسب شريف!

إخلاص صادق!

أخلاق سامية!

أدب جم!

حياة ديموقراطية!

كان فيصل شجرة مثمرة في حقل الإنسانية الكاملة!

هو مسيح الشرق!

هو أعجوبة التاريخ!

الشهيد

«الرجل تطلب موطنًا والرأس تطلبه الوسادة

والموت ليس به أذى والموت أشبه بالولادة»

صدقي جميل الزّهاوي

•••

(١)

في يوم، خط في لوح القدر، ولدت،

وفي هذه البقعة من الأرض، انفتحت عيناي لرؤية

النور!...

بنسيمها تحركت رئتاي!

وبحبها خفق قلبي!

بلبن، كونته عناصرها، تغذت خلايا جسدي!

أطعمتني من جوع، وآمنتني من خوف!

أروت مياهها ظمأي، وبظل أشجارها اتقيت حر الهجير!...

هي مسقط رأسي!

هي مرتع شبابي، ومصدر أملي!

هي مستقر أهلي وصحبي!

هي تراث آبائي وأجدادي!

هي وطني؟!...

(٢)

نفخ في البوق!

ونادى المنادي: الوطن!... النجدة! ... النجدة! سمعت هذا فاهتزت أعصابي، واضطرب فيّ قلبي! فكرت فيما عساي أن أصنع!...

تطلعت إلى بيتي، أجلت النظر فيه، فلم أجد شيئًا! تلفت حولي، فرأيت صغاري يترقبون عودتي إليهم بما يسد الرمق!

نظرت في يدي فإذا هي خالية!

خالية من كل شيء، حتى من قوت يومي!

فتشت عن شيء أقدمه!

فتشت فلم أجد!

يا للشقاء؟!...

(٣)

البـلاد في تجربة خطرة مرة!

الوطن يطلب نجدة!؟...

هذا ما كان يشـغل بالي،

ويملك عليَّ كل حواسي!

ما عساي أن اصنع؟

وأنـا لا أملك إلا إيماني!...

عـدت إلى « كتابي « أعرضه،

وإلى ذاكرتي أستوحيها!

حينئذ اهتديت...

تذكرت فوجدت!

وجدت نفسي فقدمتها؟!...

(٤)

الآن أتممت سعي،

وقمـت بالواجب المفروض علي!...

تشجع يا أبي!

كفكفـي الدمع يا أمي!

لا تلبسـوا المسوح، يا إخوتي وأخواتي!

وأنـتِ يا زوجتي الحبيبة!

يـا شريكتي في سرائي وضرائي!

تعـزي باليتامى الذين تركتهم، ولا تحزني!

إن يـوم الممات خير من يوم الولادة!

ولـولا الموت لم تكن حياة؟!...

(٥)

وصية، أبناء قومي!

قبل أن أغمض عيني، وتفارق روحي جسـدي!

ضعـوا أزهارًا على قبري، ولا تبكوا،

إن البكاء على الشـهيد ذِلة!

اذكروني!

اذكـروني في فرحكم وفي حزنكم.

ففـي فرحكم، تبتهج عظامي!

وفي حزنكم، تجدون عزاء نفوسـكم!...

اذكروني ولا تنسوني!

فما أنا إلا خميرة اسـتقلالكم المنشود!

وحجـر الزاوية، في بناء الوطن المقدس؟!....

الأنانيَّة

•••

الأنانيـة - أو حـب الـذات - غريـزة نشـأت في الإنسـان منـذ خلقتـه. تنمـو بنمـوه، وتشـتد باشـتداده.

وكـما ملكـت نفـس الشـيخ الكبـير، تحكمـت في قلـب الطفـل الرضيـع. أنظـر إلى الأول تـره يميـل إلى كل مـا هـو أجـود وأنفـع. وإلى الثـاني تـره ـ إذا قدمـت لـه حلـوى ذات قسـمين ـ مـال إلى تنـاول القسـم الأكـبر، ليخـص نفسـه بـه. ويصيـح ويبـكي، إذا رأى عـلى ثـدي أمـه طفـلًا سـواه يرضـع لبنهـا! ...

والأنانيـة عـلى اختـلاف أنواعهـا، لا تخـرج عـن إشـباع الإنسـان شـهوة في نفسـه.

وهـي إمـا أن تكـون أغراضهـا خـيرًا: كالعطـف، والعـدل، والصـدق، والتسـامح، ونـصرة الضعيـف، وإغاثـة الملهـوف. وسـائر أنـواع الخـير!

ومنهـا مـا تكـون أغراضهـا شرًا كالبغضـاء، والظلـم، والكـذب، والقتـل، والسـلب، والانتقـام، ومـا إلى ذلـك مـن أنـواع الـشرور!

وإذا صـح مـا يقولـه أطبـاء هـذا العـصر، بـأن في جسـم الانسـان غـددًا صـماء، تتحكـم - بإفرازاتهـا الخاصـة المختلفـة - في الإنسـان، فتجعلـه إمـا صالحًـا، وإمـا شريـرًا. فمـن العبـث أن نرجـو الخـير مـن جميـع النـاس!؟

ومهـما يكـن مـن الأمـر، فليـس لنـا غنـى عـن الأنانيـة التـي تكـون أغراضهـا ذات فوائـد للنـاس. إذ لولاهـا، لمـا ظهـر مـن النـوع الإنسـاني مـا يميـزه عـن

الحيـوان. ولا مـا يشـير إلى ماهيـة هـذا الكـون، وجـمال الحيـاة فيـه!

وملاشــاة هــذا النــوع مــن الأنانيــة، ملاشــاة أســباب العمــران والمدنيــة. وإفنــاء للحيــاة التــي لا يمكــن أن تكــون بــدون هــذا النــوع مــن الأثــرة!

***

أنانيتان اثنتان، تتنازعان الحياة الإنسـانية:

(١) أنانية بانية

(٢) أنانية هدامة

فافحــص نفســك أيهــا القــارئ الكريــم، وقــل: أي الأنانيتــين تتحكــم فيــك، وتهيمــن عــلى شــهواتك؟

الدِّين والتَّطوُّر

•••

ما هو الدِّين

الديـن ظاهـرة، تطـورت الفكـرة فيهـا بتطـور عقليـة الإنسـان. وهـي الاعتقـاد بوجـود قـوة مدبـرة حكيمـة عاقلـة سرمديـة، لا تـدرك حقيقتهـا العقـول البشريـة. والديـن مـن أقـدم التقاليـد الاجتماعيـة وأهمهـا. وقـد لعـب أدوارًا مهمـة في تاريـخ حيـاة الإنسـان، فـكان مـن أفعـل العوامـل في بنـاء الجماعـات وتنظيمهـا. ودليلنـا عـلى ذلـك ملازمـة الديـن لـكل حضـارة مـن حضـارات الأمـم القديمـة والحديثـة. ومـن البلاهـة أن نظـن أن إنسـانًا يمكنـه أن يكـون كافـرًا معطـلًا، لا يؤمـن بـشيء. فالإنسـان مهـما أختلـف إيمانـه، فهـو لا يـزال يشـعر مـن قـرارة نفسـه بعطـش إلى الخلـود، وإلى الاتصـال بهـذا الكـون اللانهـائي.

الدين والعلم

وقـد نشـأ الديـن والعلـم معًـا، وكان هدفهـما واحـدًا، هـو اسـتقصاء العلـل لتفهـم العلـة الأولى التـي هـي « اللـه «. لكـن العلـم أنفصـل عـن الديـن، وتمـشى مـع أسرار الكـون ونواميسـه. وذلـك لأن العلـم لا يمـس عواطفنـا. فـلا نبـالي بمـا يحـدث فيـه مـن تغيـير أو تبديـل، عكـس الديـن!

جـاء آينشـتاين سـنة ١٩١٥ بنظريتـه في النسـبية، عـرض فيهـا للجاذبيـة، وذهـب في تعليلهـا مذهبًـا يخالـف مذهـب نيوتـن واضـع نواميسـها. وكل

منا سمع بهذه النظرية، ولكن لم يستأ أحد من أينشتين صاحبها، ولم نسمع بأن حكومة ما عاقبته أو اضطهدته! ولكن، حينما أعلن دارون - قبل ٦٥ سنة ـ نظريته في النشوء، وقال إن الإنسان متسلسل من فصيلة تشبه فصيلة القرود، قامت عليه قيامة الناس، ونسبوا إليه الكفر والإلحاد. لماذا؟ لأنهم عدوا نظريته هذه ماسة بعقيدتهم الدينية. والدين - كما هو معلوم - مبني على العاطفة، أكثر منه على العقل. وعواطف الناس أبطأ في الرقي من عقولهم!

الدماغ مستودع العقائد

الدماغ مستودع الأفكار والعقائد. وكما لا يمكن لجسمين أن يشغلا حيزًا واحدًا من الطبيعة في آن واحد، كذلك لا يمكن لفكرين أو عقيدتين متناقضتين، أن تشغلا حيزًا واحدًا من الدماغ الصحيح في آن واحد. فلا يمكن لفكرة جديدة أن تأخذ مكانها من الدماغ، ما لم تقو على الفكرة القديمة. وحينئذ تطردها وتشغل مكانها. وكي تتغلب الفكرة الجديدة، على الفكرة القديمة، لا بد من زعزعة الأخيرة أولًا، ليسهل على الأولى إشغال مكانها. ولا يزعزع الأفكار القديمة البالية من أدمغتنا، لقبول الأفكار الجديدة الحرة سوى العلم، وسعة الاطلاع، وسلامة التفكير، ومجاراة العصر الذي نعيش فيه. ونحن كأبناء العصر الحاضر، واجبنا احترام حرية الفكر وتقديسها، لأنها السبيل الوحيد الذي يقودنا إلى معرفة حقائق هذا الكون وأسراره.

الدين كعقيدة

والديـن كعقيـدة لم يبـق ملازمًـا حالـة واحـدة، وصـورة واحـدة. بـل ـ بالرغـم مـن صلابتـه - تطـور تطـورات شـتى كـما سـيأتي. وتنوعـت عقيـدة البـشر بالألوهيـة تنوعـات كان للمـكان والزمـان أثرهـما فيهـا. فبعـد أن كانـت الديانـات منحطـة ارتقـت برقـي أصحابهـا. وبعـد أن كانـت الآلهـة متعـددة توحـدت وتمركـزت في إلـه واحـد.

التقاليـد الدينية القديمة

وأثرها في الأديان الراهنة

كان الإنسـان ولا يـزال، يبنـي عقيدتـه الدينيـة، وإيمانـه باللـه، عـلى تعاليـم دينيـة صرفـة. أو عـلى تقاليـد بشريـة تلقنهـا مـن أمـه وأبيـه. وتوصـل في دراسـته الطبيعيـة إلى نقطـة شـعر أمامهـا بوجـوب الإيمـان بـشيء لـه علاقتـه باللـه. وكلـما كان التقليـد قديمًـا وعنيـدًا وصلبًـا اسـتمرت آثـاره حتـى بعـد زوالـه، فيكـون كالأعضـاء الأثريـة في جسـم الإنسـان!

إن المصريـين القدمـاء، بالرغـم مـما كانـوا عليـه مـن الرقـي الدينـي، كانـوا يصنعـون رؤوس آلهتهـم عـلى هيئـة الحيوانـات، وهـو أثـر مـن آثـار الأمـم المنحطـة، التـي سـبقتهم إلى عبـادة الحيوانـات.

والمسيحيون اليوم، بالرغم مما نهت عنه الوصية الثانية من وصايا الله العشر، يزينون كنائسهم بالتماثيل والأيقونات التي وإن كانت من أشد العوامل في رقي النحت والتصوير وصقل العاطفة، إلا أنها على كل حال أثر من آثار عبادة الإنسان القديم للأصنام!

كذلك الذبيحة في الديانات الثلاث فإنها أثر لتقليد قديم كان راسخًا عند الأمم التي سبقتنا في القدم. وتقديم الذبائح لا يزال متبعًا إلى اليوم عند اليهود والمسلمين. أما المسيحيون وإن بطلت عندهم الذبيحة الفعلية بموت المسيح نفسه، إلا أنهم اعتاضوا عنها بالذبيحة الرمزية التي هي الخبز والخمر، رمزًا للحم والدم!

وقد كان المتوحشون - ولا يزالون إلى اليوم - مثل قبائل غرب أفريقيا، وأهالي جزر فيجي إذا أنزلوا قاربًا دشنوه بذبح عدد من خدامهم. وأثر هذه العادة لا يزال باقيًا عند الإنكليز، فإنهم يسكبون كمية من النبيذ على السفينة قبل إنزالها إلى البحر. والنبيذ كما قلنا يرمز للدم. وسيأتي - في سياق الكلام - أمثلة كثيرة من هذا النوع.

الإنسان الأول بلا دين

وإذا عدنا القهقرى في تاريخ البشر، وصلنا إلى زمن كان يعيش فيه الإنسان الأول بلا عقيدة يمارسها وإذا توغلنا في القدم ألفيناه أعجم طمطمًا، لا يفهم ولا يُفهم. ذلك لأن لغته لم تساعده بعد على أن يفهم بعض غوامض هذا الكون. وكان همه الأول مصروفًا إلى إرضاء شهوة الطعام والغريزة الجنسية. أما الطعام فلم يكن وفيرًا، لأن الزراعة ووسائل

الصيد لم تكن قد عرفت عنده. والغريزة الجنسية في الإنسان أشد منها في سائر الحيوان، فلم يكن الإنسان الأول يهتم إلا لهاتين الشهوتين. وتفكيره بهما منعه عن التفكير بأي شيء مما يحيط به من الموجودات الطبيعية. فلما عرف الزراعة والصيد والاجتماع، وارتقت لغته بعض الرقي، ونشأت فيه قوى التعليل والاستدراك والاستنتاج، وتميز عقله عن عقول سائر الحيوان، أخذ يفكر فيما حوله من الظواهر الطبيعية ويحاول تعليلها: كالغيم والمطر والرعد والبرق، والكسوف والخسوف، والحرارة والبرودة، والنبت والانبات، وشروق الشمس وغروبها، واختلاف مواعيد شهور القمر والنجوم. وكل ذلك كان يثير دهشته ويدعوه للعجب. وكان لرهبته إياها، ولتفاؤله بها وتشاؤمه منها يتعبدها!

أصل التدين

إن الإنسان الأول، وإن خلا من عقيدة يمارسها، إلا أن نفسه لم تخل من حاسة التدين، التي كان يزداد إحساسًا بها، كلما ازداد خوفًا من الطبيعة، وشعر بالضعف تجاهها. ولذلك كان مضطرًا، بحكم تلك الحاجة إلى طلب العون على ما كان يخيفه من الظواهر الطبيعية، من قوة غير منظورة، كان يتخيل وجودها في الكون. وأول تمتمة تحركت بها شفتاه، كانت منشأ الصلاة!

وقد ارتقت فينا حاسة التدين هذه برقي عقولنا، لدرجة لم يعد يثيرها فينا الخوف من الطبيعة وظواهرها، بقدر ما يثيرها عدم الرضى بحالتنا الحاضرة، وسعينا للحصول على مثل عليا لأفكارنا وتصوراتنا.

المعجزات

ولما ضل الإنسان في تعليله الظواهر الطبيعية، نسبها إلى أمور خارقة العادة، فنشأت المعجزات. ولولا رقي عقولنا، وإخصاب تفكيرنا، لكانت المعجزات كثيرة، وكثيرة جدًا. ففي كل يوم يكشف لنا العلم عن اختراع أو اكتشاف جديد، لولا معرفتنا بأسبابه وعلله، لعددناه معجزة وأي معجزة!... والإنسان، إذا آمن بالمعجزات أو لم يؤمن بها، فذلك لا يؤثر في جوهر الدين شيئًا. لإن الإيمان بها لا يثبت دينًا، وعدمه لا ينقض رسالة. إما إن تكون المعجزات أساسًا للدين، فذلك مخالف السنن الإلهية الثابتة التي وضعها الله لهذا الكون. ولن تجد لسنة الله تبديلًا!...

درجات الدين

ا) الخرافات والأوهام: مر بنا أن الإنسان الأول كان يضل في تعليله الظواهر الطبيعية، لجهله دخائل الأشياء التي لم تتغلغل إليها حواسه. ولما كانت اختباراته بهذا الشأن ناقصة، وتعليلاته فاسدة، تكونت لديه مجموعة من الأوهام والخرافات، فكانت مقدمة لعقائده الدينية!

ب) السحر والعرافة: وربما كان أبسط هذه الأوهام والخرافات محاولة العلم بالغيب، وهي بدء السحر والعرافة. وقد آل التمادي فيهما إلى محاولة السيطرة على الجن والأرواح الشريرة. ثم تجمعت أساطير العرافة والشعوذة وتدوولت، وحفظها السحرة والعرافون واحترفوها، فصاروا بذلك كهنة الدين وأئمته، وصارت الأساطير كتب الدين!

ج) عبادة الأرواح: وقد أدى انتشار السحر والعرافة بالإنسان إلى تصور قوات غير منظورة، أو أرواح وراء الأشباح التي كان يراها. فأصبح يعتقد بأن ظل الإنسان هو روحه، ويبرهن على ذلك بأن جثة الميت لا ظل لها!... فكان طبيعيًا أن يعتقد بأن ما يراه في حلمه، إنما هو حقائق راهنة. وأن طيف أبيه الذي يراه في الحلم بعد موته، إنما هو روح أبيه الحقيقية. فتعبدها، وقدم لها القربان على القبر، اعتقادًا منه بأن الروح تجوع وتطلب طعامًا. وهذا هو الأصل في القرابين التي نقدمها في يومنا هذا عن أرواح موتانا. فالأحلام ـ إذن ـ هي أصل الاعتقاد بالأرواح، وأصل عبادتها.

د) الطوطمية: ولما تأصل الاعتقاد في الإنسان، بأن الظل عبارة عن روح، نشأت « الطوطمية» وهي عبادة الأحجار والأشجار والحيوانات. لأنه كان يحسب ظلال هذه الأشياء أرواحًا لها. وما تعوذ أكثر الناس بالمعاذة من العين والأرواح الشريرة، كالشب والخرزة الزرقاء، و»البزلة» و»الميسة» و»الكشك» إلا أثر من آثار عبادة الإنسان القديم للمادة.

هـ) عبادة الأصنام: وقد أستمرت عبادة الأشياء الأرضية، حتى بعد انتقال الإنسان من حال التوحش إلى التمدن. فترقت هذه العبادة وتطورت، وتحولت بالتدريج إلى عبادة الأصنام. وهي أرقى أنواع العبادات، التي عرفها الإنسان قبل ظهور التوحيد.

وطني

«إذا لم تكن فلسـطين وطني، فأين وطني؟ وإذا لم يكن وطني لي، فلمن يكون؟!»

•••

(١)

لكل شـعب تربة، يدب عليها،

ولـكل أمة وطن، تعيش فيه!

به تحتمي،

وبظل جناحيه، تستتر!

منه، تسـتوحي ذكريات الماضي،

وعليه، تبني آمال المسـتقبل!

ونحن العرب، وجدنا في فلسـطين،

وكان حظنـا من الدنيا هذا الوطن!...

لكن الخطوب دهمته،

وكوارث الدهر ألمت به!

حادث، اضطرب له المؤمن،

أمـا ضعيف الإيمان، فانهزم!

قـال الجاهل في قلبه: « ليس وطن!... «

انفحتـي أيتها الأفواه المغلقة،

ويا أيتها الألسـنة الصامتة، تكلمي!

إذا لم تكن فلسـطين وطني، فأين وطني؟

وإذا عشـت بلا وطن، فماذا أكون؟!...

(٢)

أرهقتنا سياسـة المستعمر،

ومالُ الصهيونية، اسـتذل أعناقنا!

اسـتهترنا بالوطن، فتجارنا به!

بعنـا بثمن، ما لا يثمن بثمن!

رحنـا باليد الواحدة نهدمه،

وبالأخـرى، نبنيه وطنًا للغير!...

عبدنا المال!

جعلنـاه كل شيء في هذه الحياة!

نسـينا أن ليس بالمال يباع كل شيء!

وأن « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسـان!»

مصيبـة، اضطرب لها المؤمن،

أمـا ضعيف الإيمان، فانهزم!

قـال الجاهل في قلبه: « ليس وطن!»

انطقوا يا عباد المال،

ويـا باعة الوطن المقدس، تكلموا!

إذا لم تكن فلسـطين وطني، فأين وطني؟

وإذا بيـع الوطن، فماذا أكون؟!...

(٣)

اكتسح العدو البلاد،

واستولى الخصم على تراث الآباء والأجداد!

احتل السهول، واعتصم بالجبال!

أحاط بنا من كل جانب!...

هام الكثيرون منا على وجوههم!

فتشوا عن خبزهم، فلم يجدوه!

تاهوا في أوطانهم!

لا مأوى يلتجئون إليه،

ولا حجر يسندون إليه رؤوسهم!

افترشوا الغبراء. بالسماء التحفوا!

فاجعة، اضطرب لها المؤمن،

أما ضعيف الإيمان، فانهزم!

قال الجاهل في قلبه: « ليس وطن!»

أشفقي أيتها القلوب الصماء،

ويا أيتها الضمائر المتحجرة، تكلمي!

إذا لم تكن فلسطين وطني، فأين وطني؟

وإذا غدوتُ بلا وطن، فماذا أكون؟!...

(٤)

الوطـن المقدس، انتهكت حرمته،

والشـعب الوادع، سطت عليه الذئاب!

أجلته القوة عن أرضه،

وأنكرت عليه السياسـة حق الحياة!...

أقفرت منه المزارع،

وبالدخلاء الطامعين غصت مسـاكنه!

لم ينقذه الزعيم،

وحكومة الانتداب، لشـكواه، لم تستمع!

اسـتنجد بالسماء، فلم تنجده!

بسـط يديه للبشر، فأداروا له الوجوه!

كارث، اضطرب له المؤمن،

أمـا ضعيف الإيمان، فانهزم!

قـال الجاهل في قلبه: « ليس وطن!»

اطمئنـي أيتها القلوب المنكسرة،

ويـا أيتها الأنفس المريرة، لا تيأسي!

إذا لم تكن فلسـطين وطني، فأين وطني؟

وإذا ذهـب الوطن، فماذا أكون؟ ...

(٥)

الوطن وطننا، فكيف ننسـاه؟

تآمـروا عليه فهل نهمله؟ ...

هو مهد وجودنا!

هو مدفن آبائنا والأجداد!

منه بنينا أجسادنا،

وبـه امتزجنا، أحياء أمواتًا!...

كثر فينا المتشائمون،

والمتفائلون منا، استسـلموا لحكم القدر!

أزعجهم تدافع الخطوب،

وانصبـاب الرزايا، أوهى عزيمتهم!

لم يدروا أن الفجر يسـبقه سواد الليل!

وإن قوس قزح، لا يزين كبد السـماء،

إلا في الشـتاء الذي يعقبه فصل الربيع!...

انبعثـي أيتها العزائم الخائرة،

ويا أيتها الركب المخلعة، تشـددي!

إذا لم تكن فلسـطين وطني، فأين وطني؟

وإذا لم يكـن وطني لي، فلمن يكون؟!...

استغلال الدِّين

«والديـن في النـاس حقـل ليـس يزرعه إلا الأولى لهم في زرعه وطر

مـن آمـل بنعيـم الخلـد متعد ومن جهول يخاف النار تسـتعر

فالقـوم لـولا عقاب البعث مـا عبدوا ربا ولولا الثواب المرتجى كفروا

كأنمـا الديـن ضرب مـن متاجرهم إن واظبوا ربحوا أو أهملوا خسروا»

جبران خليل جبران

•••

مـن أمراضنـا الاجتماعيـة الفتاكـة، مـزج الديـن بـكل شـأن مـن شـؤون حياتنـا. في أعمالنـا وفي ألعابنـا، في وحدتنـا وفي اجتماعنـا، في أحاديثنـا وفي مخاطباتنـا، في كل شيء. حتـى صـار الواحـد منـا يشـعر ـ وهـو في القـرن العشريـن - بأنـه يعيـش في جـو مـن التعصـب الدينـي، مشـبع بالظلمـة والخطـر!

وليـس مـن سـبب في إحـداث جـو مظلـم مثـل هـذا، بـين آونـة وأخـرى، في ثنايـا أضـواء المدنيـة السـاطعة، التـي يتمتـع بهـا غيرنـا مـن بنـي الإنسـان، سـوى نفعيـة بعـض أفـراد جعلـوا مصلحتهـم الشـخصية فـوق كل مصلحـة. وسـخروا الديـن في قضـاء شـهوات لهـم، عجـزوا عـن نوالهـا بغـير هـذا السـبيل!

فـإذا أفلـس التاجـر في تجارتـه، أتخـذ مـن الديـن واسـطة يسـتهوي بهـا البسـطاء مـن النـاس في ترويـج تجارتـه!

وإذا أفلس الأديب في أخلاقه، التجأ إلى الدين يستر به تسفله وانحطاطه!

وإذا أفلس الزعيم في سياسته، لا يجد أمامه سوى الدين عكازًا يتوكأ عليه!

وهكذا أصبح الدين تجارة، يتجر به كل نفعي، ويستغله كل عاجز، استغلالًا بعيدًا عن كل شرف. متخذًا منه عند حاجته معولًا للهدم! ...

وعندي إن كل من يفلس في أي شأن من شؤون حياته، ويتخذ الدين ستارًا يستر به إفلاسه، هو مفلس في دينه أيضًا.

إن أهم ما لدى الإنسان دينه، ولست أقصد بالدين المذهب الذي ينتسب إليه. إذ قد نرى الرجل الذي ذلك شأنه، يسفل إلى أدنى حضيض الخسة واللؤم، على الرغم من شدة تمسكه بقواعد الدين! وإنما الدين، هو ذلك المعتقد الذي يعتقده الإنسان حق الاعتقاد، ويوقن به كل اليقين، فيما يتعلق بواجبه نحو نفسه، ونحو أخيه الإنسان!

في كل أمة أناس يحاولون الظهور على أكتاف غيرهم. فإنك لا تسمع بدعوة مهما سخفت إلا وتجد لها أتباعًا. ولا تجد نبيًا كذابًا، أو مشعوذًا خداعًا، إلا وله قوم يلتفون حوله، ويؤمنون به. فما أغرب عقل الإنسان!

نعم. إن بين الناس عقلاء ومتعلمين، يستطيعون أن يميزوا الغث من السمين، والخبيث من الطيب. ولكن ليس كل الناس عاقلين أو متعلمين!...

ليس فينا من لا يتعصب لدينه أو مبدأه أو رأيه، ولكن يجب أن يكون لهذا التعصب حد لا يتعداه. فإن الإفراط في التعصب يقود بطبيعته إلى الرجعية!

جميل أن يكون الإنسان متدينًا، وأجمل منه ألا يتخذ ذلك التدين واسطة للنفع الذاتي، عن طريق الإضرار بالناس!

ليست التقوى في التظاهر بالتقوى، والإسراف في إداء الطقوس الدينية. وإنما التقوى الخالصة، تكون بالاستمساك بالدين للدين، وتقديس الفضيلة للفضيلة. دون أن يكون للإنسان وراء ذلك غرض يتوخاه في دنياه وآخرته!

إن هذا النوع من التعصب حافل بالخطر، لأنه يعيق الإنسان عن التقدم، ويثير النعرات الجنسية، التي يجب مكافحتها والقضاء عليها.

إننا في عصر، من الضروري أن نعيش فيه إخوة، لا تفرق بيننا الأديان. فمتى تم لنا أن نجعل الدين لا يتعدى حدود المعبد الذي نصلي فيه، واعتمدنا في الحياة على نشاطنا وقوة إرادتنا، أمكننا أن نقول بأننا قد أصبحنا أمة تفهم معنى الحياة!...

لقد مر على الإنسان عصر، هو عصر البداوة، كانت العصبية تجمع بين أفراده ضمن حلقة ضيقة. فلما اتسعت هذه الحلقة بانتشار الأديان، قام كل دين مقام العصبية، يجمع الناس ويؤلف بينهم. غير أن انتشار أسباب المدنية بين الناس، جعلهم في حاجة إلى أن يعيشوا -

بحكم المصلحة المتبادلة - ضمن حلقة أوسع وأعظم مما سبقها من الحلقات لا تضيقها العصبية، ولا يسيطر عليها الدين. وإنما تسودها روح القومية وحدها!

فإذا كنا حقًا نعيش في عصر القومية، وجب علينا أن نقضي على كل محاولة ترجع بنا إلى الوراء!

نريد أن يكون هذا الوطن الذي نعيش فيه جميلًا. ولا يكون جميلًا إلا إذا أصبح قويًا وعظيمًا، يضمن للأفراد الثقة المتناهية، ولا يسمح للنفعيين التلاعب بمقدراته!

ومهمة خطيرة مثل هذه، ليس لها غير الشباب للقيام بأعبائها. لأن جمال الشباب وقوته وإرادته الجبارة، هي المواد الأولية التي يتكون منها جمال الوطن. فليأخذ الشبان هذه الآية، ولينقشوها على صفحات قلوبهم:

« نريد وطنًا جميلًا قويًا جبارًا!»

جبران خليل جبران

«... فمن كان منا لا يفهم جبران اليوم، فلا بد أن يفيق غدًا ويدرك هفوته!»

•••

من هو جبران

جبران أعظم أدباء المهجر، ومن أشهر الشعراء الرمزيين وأمهر مصوريهم. قضى شبابه متنقلًا بين باريس ونيويورك حيث اختبر كلتا المدنيتين، ورأى ما بهما من آثار اخترقت أعماق نفسه فكانت قوية كعبقريته وروحه. وفي مؤلفاته يصور ما يشعر به، وتوحيه إليه ربة الشعر. وهو رئيس الرابطة القلمية التي وحدت أدباء الولايات المتحدة. وصاحب تلك السلسلة الثمينة من المصنفات الأدبية التي ذاعت في جميع أنحاء العالمين العربي والأجنبي، «كالأرواح المتمردة» و«عرائس المروج» و«العواصف» و«دمعة وابتسامة» و«المواكب» وأروعها رواية «الأجنحة المتكسرة» وموضوعها الحياة السورية بين الماضي والحاضر. رمز بها إلى ما كان يختلج به صدره من الدعوة إلى التجديد، والثورة على العادات القديمة والتقاليد الظالمة. وإلى الرغبة في إصلاح المجتمع، وإبعاده عن مواطن الظلم والشقاء. وأوحى لنا بروايته هذه أنه حلق بالجناح الواحد منها في سماء نيويورك، وبالآخر في سماء لبنان. ولم تكن مؤلفاته باللغة الإنكليزية دون كتبه العربية، بل فاقتها فصاحة وبلاغة. «كالمجنون» و«السابق» و «رمل وزبد» و«يسوع ابن الإنسان» و«آلهة الأرض» و«النبي» وفيه ظهرت عبقرية جبران في ثوب من الموسيقى

والجمال والخيال الشعري. تذكرنا كلماته المرتعشة شعورًا بأنغام نشيد الأنشاد. ولروعته وجماله طبع عشر مرات وتليت فصوله في الكنائس.

(ولد جبران خليل جبران في بشري إحدى قرى شمالي لبنان سنة ١٨٨٣ ومات في نيويورك في ١٤ نيسان سنة ١٩٣١ فيكون عمره ٤٨ سنة. وكان يميل في حداثته إلى الأدب والتصوير. تلقى علومه في مدرسة الحكمة في لبنان. ثم نزح إلى أمريكا فقضى خمس سنوات في مدينة بوسطن يتلقى أصول الفن. تذكرنا مدرسة الحكمة في لبنان. وسافر بعدها إلى باريس، وأتصل برودان النحات الشهير. ولما عاد إلى أمريكا جعل نيويورك مسكنه حيث أشتغل بالتصوير والتأليف باللغتين العربية والإنكليزية.)

عبقرية جبران

في معنى العبقرية النبوغ وجبران خليل جبران كان عبقريًا، وعبقريًا شجاعًا. وشيطانه أن أكبر من شياطين غيره من الأدباء والشعراء. فكان لا يدع له فرصة للراحة، بل يحفزه إلى الثورة الدائمة، فجعل حياته بين الابتسامات والدموع. الابتسامات لكل أمل، أو بارقة أمل، تلوح في فضاء الاخاء. والدموع لكل ألم يحز نفسه حنانًا وعطفًا على الإنسانية المعذبة، التي دعي لأن يكون رسولها إلى القلوب الصلدة. أليس هو القائل: « لا أبدل أحزاني بأفراح الناس!؟...»

أسلوب جبران

ميـزة جـبران في جميـع مؤلفاتـه أنـه صاحـب أسـلوب خالـد، فهـو غـير مقلـد. وأسـلوبه هـذا أصبـح مدرسـة مـن مـدارس الأدب العـصري. ولـو كان جـبران كاتبًـا فقـط، لمـا أنتفـع بهـذه الشـهرة. ولمـا كانـت أمريـكا أندلـس آخـر لـه، رقـت فيهـا روحـه، وسـمت بهـا نفسـه، وأصبـح زعيـمًا لهـذا النـوع مـن الأدب الجديـد، الـذي أعتـق الذهـن البـشري مـن عبوديـة التقليـد، وسـار بـالأدب عـلى نهـج الحيـاة والتقـدم.

جبران المتمرد

كان جـبران في شـعره ونـثره في كل حياتـه الكتابيـة متمـردًا، متطرفًـا بمبادئـه حتـى الجنـون. يميـل إلى الهـدم ميلـه إلى البنـاء. وفي قلبـه كـره لمـا يقدسـه النـاس، وحـب لمـا يأبونـه. فهـو يقـول:

« أحـب مـن النـاس المتطرفـين المتحمسـين الملتهبـين بشـعلة نزعتهـم. المضطربـين بوجـدان قلوبهـم. المستسـلمين إلى عواطفهـم. القادريـن عـلى الهبـوط إلى لجـج الحيـاة والصعـود إلى أعاليهـا.. «

وقـد غاظ جبرانَ انتقادُ بعـضِ الكتابِ لغتَه فتمرد وقال:

لكـم لغتكـم ولي لغتـي. لكـم مـن اللغـة العربيـة الألفـاظ وترتيبهـا، ولي منهـا مـا يوفـق أفـكاري وعواطفـي. لكـم منهـا جثـث محنطـة بـاردة جامـدة، تحسـبونها الـكل بالـكل، ولي منهـا أجسـاد لا قيمـة لهـا بذاتهـا، بـل قيمتهـا بالـروح التـي فيهـا. لكـم منهـا القواميـس والمعجـمات والمطـولات،

ولي منهـا مـا غربلتـه الأذن وحفظتـه الذاكـرة مـن كلام مألـوف مأنـوس، تتداولـه ألسـنة النـاس في أفراحهـم وأحزانهـم...»

ولما رأى جـبران أخـذ الكتـاب بأسـاليب الأدب القديـم، وانتقاضهـم عـلى كل بدعـة في الأدب، وأسـلوب جديـد في التفكـير، تمـرد وقـال:

« لكـم فكرتكـم ولي فكـرتي. لكـم فكرتكـم شـجرة صلبـة تتمسـك جذورهـا بتربـة التقاليـد، وتنمـو فروعهـا بقـوة الاسـتمرار. ولي فكـرتي سـحابة تهـادى في الفضـاء، ثـم تهبـط قطـرًا، ثـم تسـير جـدولًا إلى البحـر ثـم تتصاعـد ضبابًـا نحـو الأعـالي. لكـم فكرتكـم مذهبًـا قديمًـا لا يغيركـم ولا يتغـير، ولي فكـرتي بدعـة جديـدة أغربلهـا وتغربلنـي كل صبـاح وكل مسـاء...»

رأى جـبران أن وجـه الديـن كثـيرًا مـا يشـوه. وأن النـاس يتاجـرون بـه، ويسـتغلونه لمصلحتهـم. فاغضبـه ذلـك، وبصـوت مجلجـل صـاح في مواكبـه:

والديـن في الناس حقل ليس يزرعه

إلا الأولى لهـم في زرعه وطر

من آمـل بنعيم الخلد متعد

ومن جهول يخاف النار تسـتعر

فالقـوم لولا عقاب البعث ما عبدوا

ربًـا ولولا الثواب المرتجى كفروا

كأنمـا الدين ضرب من متاجرهم

إن واظبـوا ربحوا أو أهملوا خسروا

كان جبران يحب الجمال. ويراه في كل شيء، حتى في الموت. ولما تأكد أن هناك شيئًا (هو الروح) لا يستطيع الموت أخذه، تمرد عليه وقال:

دعوني أنم فقد سكرت نفسي بالمحبة!

دعوني أرقد فقد شبعت روحي من الأيام والليالي! أشعلوا الشموع، وأوقدوا المباخر حول مضجعي. وأنثروا أوراق الورد والنرجس على جسدي!

عفروا بالمسك المسحوق شعري. وأهرقوا الطيوب على قدمي. ثم أنظروا واقرأوا ما تخط يد الموت على جبهتي!

خلوني غارقًا بين ذراعي الكرى، فقد تعبت أجفاني من هذه اليقظة!

رأى جبران أن العالم كان ولا يزال مكبلًا بأغلال النفعية، منقادًا بالأنانية على نوعيها. فكان كلما فتش عن خير، وجد شرًا يقابله. لذلك قال - بعد أن استعرض ٧٧ شخصية في ١٩ قرنًا ـ مخاطبًا يسوع ابن الإنسان:

أيها السيد!

إن أصدقاءك ما زالوا في وسطنا لتعزيتنا وعضدنا. وأعداءك أيضًا معنا لقوتنا وتثبيت إيماننا.

وأمك معنا: فقد رأيت نور وجهها في محيا جميع الأمهات. إن يدها تهز الأسرة بلطف وتطوي الأكفان بعطف.

ومريم المجدلية لا تزال في وسطنا. تلك التي شربت خل الحياة ثم خمرتها ويهوذا رجل الآلام والمطامح الصغيرة ما زال يمشي في أرضنا.

وهـو مـا بـرح يصطـاد نفسـه إذا لم يجـد غيرهـا صيـدًا. طالبًـا ذاتـه الكـبرى بالانتحـار.

ويوحنـا الـذي أحـب شـبابه الجـمال هـو معنـا. وهـو ينشـد ألحانـه وان لم يصـغ إليـه أحـد.

وسـمعان بطـرس الشـديد أنكـرك لتطـول حياتـه في معرفتـك هـو أيضًـا جالـس أمـام مواقدنـا. وهـو قـد ينكـرك ثانيـة قبـل مـرور فجـر يـوم آخـر. بيـد أن يصلـب في سـبيل مبادئـك حاسـبًا نفسـه غـير مسـتحق لهـذا الـشرف.

وقيافًـا وحنـان مـا زالا يتمتعـان بنـور يومهـما ويحكـمان عـلى المجـرم والـبريء. وهـما ينامـان عـلى فـراش مـن الريـش في حـين أن الـذي حكـمًا عليـه تلعـب السـياط عـلى ظهـره.

والمـرأة التـي أمسـكت بالـزنى تمـشي اليـوم في شـوارع مدننـا. وهـي تجـوع للخبـز الـذي لم يخبـز بعـد. وتعيـش وحيـدة في بيـت فـارغ.

وبيلاطـس البنطـي هنـا أيضـا. فهـو واقـف باحـترام أمامـك ولا يـزال يسـألك. بيـد أنـه لا يجـرؤ أن يعـرض بمركـزه أو يقـاوم أمـة أجنبيـة. وحتـى السـاعة لم يفـرغ مـن غسـل يديـه. وحتـى السـاعة تحمـل أورشـليم الطسـت وروميـة الإبريـق وبـين الإثنـين تنتظـر ألـف ألـف سـنة!

فلسفة جبران

كانت فلسفة جبران تدور حول الرجوع إلى الطبيعة، والهرب إلى « الغاب « من ضوضاء المدنية وسخافاتها!

كان يسمع موسيقى في ترنيمة العصفور، وولولة العاصفة، وصخب اللجة، وخرير الساقية، ولثغ الطفل، وهذيان الشيخ!

كان يرى تحت هذه الدنيا الكاسية دنيا عارية. وإن الملك والسوقة واحد، وإنما الفرق بينهما في الملابس الخارجية فقط!

كان يرى في صولجان الملك وفي بردة الخلافة، كما يرى في عكاز الصعلوك وثوب الشحاذ. يرى في كل ذلك معنى الروعة والجلال!

كان يرى أن الجسد رداء الروح، وأن الأعمال الحسنة تزين هذا الرداء!

هو لم يعرف الله بالتقليد والوراثة، بل عرفه من عظمة الكون وشهد في كل جزء منه أثره!

رأى في المال شقاء المجتمع، فحاول أن يزيل هذا الشقاء، لا بالزهد والهرب من الدنيا، بل بالإقبال عليها!

كان يدعو الناس إلى التأمل في نجوم السماء، ولكنه لا يجعلهم يتناسون أنهم أبناء أرض!

كان يحترم العمل بنوعيه الروحي والمادي ويقول: « إن إثنين لا ثالث لهما عندي حقيقان بالإكرام، العامل الذي يكد في تحصيل رزقه، وذاك

الـذي يهـب الأنفـس الجائعـة مـا فقدتـه مـن نـور، وهدايـة، وحريـة، وخلـود.»

إن جـبران لم يكـن يـرثي للعامـل مـن أجـل كـده ونصبـه ـ لأن لمثـل هـذا خلـق الإنسـان - ولكـن يـرثي لـه لأنـه فقـد نـور الحريـة فبـات في ظـلام دامـس!

« لـو كنـا مـن الطيـور لشـدونا مثلهـا، أو مـن الأسـماك لسـبحنا مثلهـا. ولكننـا آدميـون، فليـس لنـا إلا أن نفكـر كـما هـو الواجـب علينـا « هـذا مـا كان ينشـده جـبران في كل كتبـه. ومـن يخـش التفكـير فاحـر بـه ألا يقـرأ جـبران.

وهكـذا جمعـت فلسـفة جـبران بـين روحيـة الـشرق ومادية الغـرب. فهـو لم يـدع للتجـرد مـن المـادة، كـما أنـه لم يـدع للاسترسـال فيهـا. ولذلـك كانـت مؤلفاتـه جـسرًا موصـلًا بـين الـشرق والغـرب.

منزلة جبران في الأدب

قلـما نعـرف مـن الأدبـاء مـن أخلـص لفنـه إخـلاص جـبران خليـل جـبران، الـذي أشـتهر في عـالم الأدب بطريقتـه في الشـعر المنثـور، عـلى أسـلوب مبتكـر، سـيظل نموذجًـا يحتـذى في الأدب العـصري.

إنـه يصـور الفكـرة أولًا، لأنـه فنـان ورسـام. ومـن ثـم يلبـس الصـورة ثوبًـا قشـيبًا مـن الاسـتعارات والمجـازات.

وإذا لم تكـن اسـتعارات جـبران ومجازاتـه مسـتوحاة مـن الـروح العربيـة الصميمـة - المأخـوذة مـن المحيـط الصحـراوي ـ فلأنـه عـاش في محيـط

يختلف كل الاختلاف عن ذلك المحيط. ولأن نسيم لبنان وأرزه وروابيه، لم تبرح يومًا من مخيلته.

إن جبران كان يختار المعاني السامية ويسكبها في إناء. قد يكون هذا الإناء بعض الأحايين من الفخار، ولكن فيه الرحيق والسلسبيل.

لقد أدى جبران رسالته بكل أمانة وشجاعة. وبها دخل البانثيون « العالمي » وأتخذ مقره بين الفلاسفة والمعلمين والأدباء.

فمن كان منا لا يفهم جبران اليوم، فلا بد أن يفيق غدًا ويدرك هفوته.

مات جبران الوديع، ولكن روحه الجبارة، المتعطشة للأبدية، ظلت محلقة في فضاء اللانهاية!

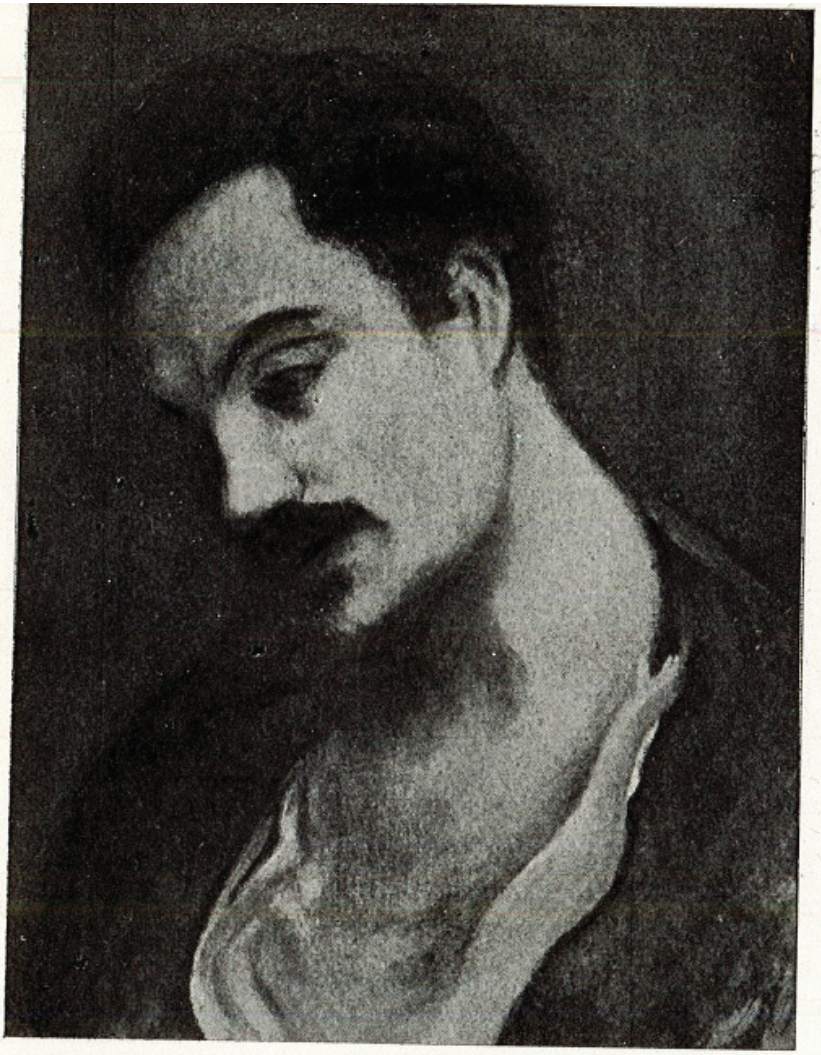

جبران خليل جبران

الزَّعيم الشَّيخ

«هـي دمعة، نسـكبها في رثاء الفقيـد العزيز. وكلمة حق، نقولها في الزعيـم الراحـل. حامل راية الجهاد وباعث النهضة القومية في البلاد. الشـهيد موسى كاظم الحسيني»

•••

فذلكة

في سـنة ١٢٦٦ للهجـرة، ولـد. ومـن عائلـة كريمـة النسـب تحـدر. هنـاك... في بيـت المقـدس ربى، وفي ظـلال قبـة الصخـرة ترعـرع. فنشـأ طيـب الخلـق، نبيـل المقصـد.

قـضى حياتـه، قبـل الحـرب، في خدمـة حكومتـه. تنقـل مـن بلـد إلى بلـد، وسـافر مـن قطـر إلى قطـر.

كان قائمقامًـا في فلسـطين، وسـوريا، وشرق الأردن. ومتصرفًـا في العـراق والأناضـول وجزيـرة العـرب. أكسـبته الوظيفـة مرونـة الحيـاة، وأفاضـت عليـه السـنون حنكـة الدهـر!...

احتك بأمته في تلك الأقطار، فسـاءه حالها. أنكر ذلها واسـتعبادها!

ناداه الواجب فأطاعه.

عاد إلى مسـقط رأسه، وأدى الرسالة!؟...

خيبة أمل

نشبت الحرب العامة، وأعلن « الحسين « ثورته على الترك. إستعرض الزعيم ذكريات الماضي فتحفز. أحس بقرب الخلاص فاستعد. عرض عليه الترك، الدخول في مفاوضة، فأبى، لأنه كان جنديًا من جنود الثورة!...

إنتهت الحرب، وقضي على الترك بالجلاء. تلفت الزعيم حوله، فانكمش، تحقق خيبة الأمل. رأى وطنه لقمة في فم الاستعمار، وأمته ضحية على مذبح الصهيونية. شق عليه أن تنجو البلاد من استعباد، فتبلى بآخر أشد وأنكى. شعر بعامل يدفعه إلى التضحية فلبي، وحمل علم الجهاد ست عشرة سنة!...

زعيم

احتضن قضية البلاد، وتولى قيادة الأمة. لا حبًا بزعامة، ولا طمعًا بجاه. فإن له من تاريخه الصافي النقي، ما يغنيه عن هذا وذاك.

ترأس في الوطن سبعة مؤتمرات، وذهب إلى الغرب في طليعة ثلاثة وفود.

دافع عن الوطن، ناضل في سبيل حريته، خدم الأمة بهمة الشباب، وساسها بحكمة الشيوخ.

كان كلما تألبت عليه السنون، تحفز للوثوب. وكان كلما إزدادت النوائب، إزداد استرسالًا في التضحية!...

أسباب ونتائج

كنا في بدء. جهادنا نتظاهر، والتظاهر دواء للنفس المكبوتة. حيل بيننا وبينه، فتوسلنا بالاحتجاج، والاحتجاج ـ كما تعلم - لا يسمن، ولا يغني من جوع!

كبتت الأمة ظلامتها مدة. لكنها لم تستطع الاحتمال

فانفجرت. وأدى انفجارها إلى ثورات ثلاث، قمعتها الحكومة بالقوة. وظلت ماضية في تنفيذ سياستها البغيضة، بلا هوادة ولا رحمة!...

اشتد الضغط على الأمة فارهقها. دفعها - ثانية ـ إلى التظاهر، غير عابئة بمنع، ولا مهتمة بإنذار!؟...

ضحية

برز الزعيم. يحوطه جلال العمر، ووقار الشيخوخة. قاد تلك التظاهرات الدامية. تحمل قسوة البوليس، فوق تحمله عبء السنين. عرض نفسه لهجمات الجند، وفتح صدره لرصاص البنادق!...

شاهد أحد أفراد الشعب، يسقط قتيلًا بين يديه، فبكى. تحدرت من مآقيه دمعة غالية، هي دمعة الشيخوخة. فعبرت عن آلام نفسه، ودلت على مبلغ إخلاصه وتضحيته!

للقضيــة عــاش، وفي ســبيلها قــضى. قــضى وفي قلبــه لوعــة عــلى الوطــن المنكــوب، وفي نفســه حــسرة عــلى الأمــة المــرزوءة!

مــا كان باســتطاعته أن يحقــق آمــال أمتــه. ولكنــه اســتطاع أن يقــاوم، وأن يجاهــد في ســبيل الحريــة حتــى النفــس الأخــير!؟...

المرحوم موسى كاظم باشا الحسيني

أحبُّ من النَّاس المجانين!

•••

هو مجنون!

كلمة سمعتها يوم أن أستشهد شيخنا الجليل، عز الدين القسام...

ساءلت نفسي، ما عساه أن يكون جنون القسام؟

أهو جنون عادي، أم هو جنون من نوع آخر؟!... درست تاريخ هذا الجنون، بحثت عن أسبابه وعلله، فوجدت أنه لم يكن جنونًا بالمعنى المقصود من الكلمة. وإنما كان جنونًا بالوطنية، غابت معانيه عمن ردّد هذه الكلمة في ذلك اليوم.

قالوا إنه مجنون!

أما أنا ففكرت قليلًا، ثم عدت إلى نفسي وقلت:

إذا كان من فيه هذا النوع من الجنون، يدعى مجنونًا، فلست أحب من الناس إلا المجانين!؟...

طالعت سير الأبطال، وتاريخ العظماء، وقصص الأدباء، وأخبار الفاتحين، ومجازفات الرواد، ورسالات الأنبياء والمرسلين!

قابلت بين أعمالهم كلها، فوجدتها متفقة في المبدأ، متشابهة في الغاية.

قرأت فيها:

الجنون في البطولة!

الجنون في العظمة!

الجنون في الفن!

الجنون في الفتوحات!

الجنون في المجازفات!

الجنون في العقائد والرسالات!

قرأت هذا، ثم عدت إلى شهيدنا القسام.

فحصت جنونه على ضوء ما مر من أنواع الجنون، فوجدته نوعًا آخر من أنواعه.

جنون في التضحية!

فقلت حينئذ في نفسي:

إذا كان من فيه هذا النوع من الجنون، يدعى مجنونًا، فلست أحب من الناس إلا المجانين!؟...

اكتشاف بحار واسعة لم يجر فيها شراع!...

وعثور على أقاليم شاسعة، لم تطأها قدم إنسان!...

واهتداء إلى شعوب منوعة، لم تكن تحسب في عداد سكان الأرض!

تحققت هذا كله، وأنعمت النظر في أقوال العقلاء! ثم رجعت إلى نفسي، وقلت:

إذا كان من فيه هذا النوع من الجنون المجازف، يدعى مجنونًا، فلست أحب من الناس إلا المجانين؟ ...

***

نحن اليوم، نؤمن برسالات الأنبياء، ودعوات المرسلين! نقدسهم ونجلهم!

أما العقلاء معاصروهم، فقد اضطهدوهم وهزأوا بهم!

لم يعف لسانهم عن القول:

إنهم مجانين « مهسترون «!...

ولو قدر لنا أن نتقهقر إلى زمنهم، لكنا أيضًا عقلاء، من أصحاب هذا الرأي!

كانت نتيجة هذا الجنون الهستيري، هداية الضالين من البشر، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور!

لما تأكدت هذا وتفهمته، سفهت رأي العقلاء!

ثم رجعت إلى نفسي، وقلت:

إذا كان من فيه هذا النوع من الجنون، يدعى مجنونًا، فلست أحب من الناس إلا المجانين؟ ...

***

وأخيرًا!

بعد أن استعرضت المجانين، وفحصت أنواع جنونهم. تيقنت أنه لولا وجود مغامرين في الحياة، مثل هؤلاء المجانين، في كل أمة من الأمم، وفي كل عصر من العصور، يسيرون في أعمالهم في الحياة بوحي الشعور، لا بوحي العقل. لما كان هنالك شيء يقال له دين، أو أدب، أو سياسة، أو علم، أو وطن، أو اجتماع!...

فإذا كان الجنون:

الخـروج على المألوف مـن التقاليد البالية، والعادات الضارة!

أو الثورة على الظلم والاسـتبداد!

أو التضحية في سـبيل نفع البشر!

أو خدمة الفن والاجتماع!

أو السـمو فوق مستوى المجموع!

أو البحـث عن المثل العليا في الحياة!

فنعم الجنون هو!

إن عـلى عاتـق هـؤلاء المجانـين، تقـوم البشريـة اليـوم، وتنعـم في أديانهـا، وآدابهـا، وحرياتهـا، واختراعاتهـا، واكتشـافاتها؟!...

***

فـإذا كنـت أيها القارئ، لا تؤمن بصحة ما أقول!

وإذا كنت لا تزال تشـكك في الأمر الواقع!

وإذا كنـت تود الوقوف حيث ولدتك أمك!

فاسـمح لي بأن أطلق عليك لفظة «عاقل»

أمـا أنا، فدعني أردد القول:

إذا كانـت هـذه الأنـواع مـن الجنـون، تـؤدي إلى مثـل هـذه النتائـج، فلسـت أحـب مـن النـاس إلا المجانـين؟!

أين المصير؟!

«يـا قـوم إن لكـم من أرث أولكم مجدًا قد أشـفقت أن يفنى وينقطعا

هو الجلاء الذي يجتث أصلكم فمن رأى مثل ذا رأيًا ومن سـمعا»

لقيـط بن يعمر الإيادي

•••

(١)

في هذا اليوم!

ذكـرى احتلال بلادنا نعيدها،

وصك اسـتعباد أمتنا نتلوه:

صـك ذل، جهود لمحوه، بذلناها،

وسـنون عديدة، في الجهاد قضيناها،

نصـارع الموت، والموت يصارعنا،

ندافـع الفناء، والفناء يكاد يدفعنا.

جهاد، مـليء بالدماء، عامر بالضحايا!

جاء المستغلون فشوهوه،

وسـعى دعاة السوء، فخففوا حدته،

فكان جهـاد قليل الحصاد، عديم الثمر.

ألا سـحقًا لمن تأتي على يديه الشكوك،

ويـلٌ لأمة لا تعلم أين المصير!؟...

(٢)

هناك جماعات يعيشـون بيننا،

وأفراد، على أمتهم يحسـبون!

أصيبـوا في إيمانهم الوطنـي، فأصيبوا بكل فضيلة.

سـاعدوا المستعمر على استعبادنا،

وللدخيـل، مهدوا امتلاك أراضينا!

فضلـوا الدنيا على الخلود،

باعـوا بالمال تراث الآباء والجدود!

نشـدنا وطنيتهم فأنكروها،

وذكرناهـم بوطنهم، فتبرأوا منه!

إن حـب الوطـن عقيدة، لا يؤمن بها الكافرون،

والتضحيـة فرض، يعجز عن تأديته المارقون!

قلة تسـتغل مصائب الأمة،

وكثرتهـا، لا تعلم أين المصير!؟...

(٣)

أحـزاب كثيرة، وبرامج منمقة!

يقرأها الملهوف فيفرح،

يحسـبها الظمآن ماء وهي سراب!

زعماء متاجرون،

يبطنـون خلاف ما يظهرون!

ألسـنتهم تصيح بالأمة « الاستقلال »،

وضمائرهم، لخدمة الغاصب، يسـخرون!

يبرزون حين اقتسـام الغنائم،

وعنـد التضحية، في أوكارهم يختفون!

أعمال هزيلة، كان نصيبها الفشـل،

وأضاليل باطلة، سـلبت ما في نفوسـنا من أمل!

وبين حلاوة هذا، ومرارة ذاك، نسـير إلى حيث لا نعلم أين المصير!؟...

(٤)

ضعف الحق بأيدينا،

وأمام الباطل، كدنا نلقى سـلاحنا!

لانـت مضاجعنا، فطمع بنا الدخيل،

تحدانا، وعبث بنا!

رضينا بذاك التحدي،

وعلى هـذا العبث، بالاحتجاج أكتفينا!

حلمنا، فاسـتهان بنا العدو،

وطئنـا وثقل يده علينا!...

أيها الناس!

لم يكـن هذا خلقًا ورثناه،

إن هذا شـعور بالكرامة فقدناه،

ومن لا يستشـعر الكرامة ليس بإنسان،

وكحيـوان، لا يعلم أين المصير!؟...

(٥)

وضـع غريب، به ابتلينا،

وسياسـة شاذة، فرضت علينا!

آذتنا في كرامتنا،

وفي وطننـا، جعلتنا غرباء!

انتداب جان، لم توح به السـماء،

واسـتعباد جائر، لم تأمر به شرائع الأرض!...

احتججنـا، فصم القوم آذانهم،

تمردنا، فقالوا: « إننا أشـقياء «!

كيف لا نحتج، وبيع الوطن مسـتمر،

كيـف لا نتمـرد، وهجرة اليهود لا تنقطع؟ ...

احـذروا الكارثة، أبناء وطني،

وقبل حلول السـاعة تدبروا!

قـد أصبح الدخلاء يعلمون مصيرهم،

أمـا أنتم، فلا تعلمون أين المصير!؟...

الكاظمي

ذكرى تأبينه في يافا يوم ١٥ ربيع الأوّل سنة ١٣٥٤ الموافق ١٦ حزيران سنة ١٩٣٥

مـن نـام عـن أوطانه فذاك ميت يلحد

ومـن يمـت دون حماه فهو حي يحمد

مـا قلـت يومًـا وطني إلا تنزى الكبد

«للفقيد»

•••

في يـوم مـن أيـام الدهـر السـوداء، وفي سـاعة مـن سـاعات القـدر الدكنـاء، يفجعنـا المـوت بعظيـم لا كالعظـماء، وإن قـل عديدهـم فينـا. وشـاعر لا كالشـعراء، وإن كـثر وجودهـم بيننـا.

ومـا هـذا العظيـم الشـاعر، والشـاعر العظيـم، غـير فقيـد العروبـة، المرحـوم الشـيخ الوقـور عبـد المحسـن الكاظمـي.

أجـل! لقـد ضـم الـتراب جسـمه الفـاني، أمـا روحـه الخالـدة فقـد ضمهـا شـعره. فـإذا مـا قرأنـا هـذا الشـعر، بـرزت لنـا تلـك الـروح، تحوطهـا هالـة القداسـة والمجـد!

الشـعر شـعور، بـل عاطفـة تجيـش في الصـدور. يقذفهـا الشـاعر عـلى لسـانه، بحلـة مـن الخيـال الرائـع، فتؤثـر في الإنسـان مـن قبيـل إثـارة العواطـف والوجـدان، لا مـن قبيـل إقنـاع الفكـر بالحجـة والبرهـان!

والشعراء، في كل مكان وزمان، هم شراح الإلهام الإلهي، وإن لم يكونوا آلهة. ومشرعو العالم، وإن لم يعترف بهم العالم.

ولكي يكون الإنسان شاعرًا، يجب أن يفهم الحب والحق والجمال.

وشاعرنا الكاظمي، كان يدين بهذه كلها، ولذلك كانت العواطف تملأ جنبات نفسه. وما الحب إلا مصباح، والعواطف أشعته!

وكم نحن مدينون للعظماء الذين يسيرون في الحياة بوحي عواطفهم، لا بوحي عقولهم. لأن العقل مقيد بقيود المادة، وأما العاطفة فهي طليقة حرة، لا تحفل بالمادة، لأنها مصدر الآثام. ولا ترى الحياة إلا سعيدة، وإن اكتنفها الآلام!

العقل يقول: إن الحياة أفضل من الموت، وأما العاطفة فتقول: لولا الموت لم تكن حياة!

فلو أصغى الجندي إلى وحي عقله، لألقى سلاحه أمام العدو، وفر!

ولو أصغى الرائد إلى وحي عقله، لما أقدم على المجازفة بحياته في سبيل الريادة والاستكشاف!

ولو أصغى المجاهد في تحرير وطنه إلى وحي عقله، لترك ميدان الجهاد هربًا من المسؤولية!

ولو أصغى صاحب الرسالة، سواء أكانت دينية أم سياسية أم اجتماعية، إلى وحي عقله، لما أدى رسالته خشية الاضطهاد!

وهكذا تجد أنه لولا وجود مغامرين في الحياة مثل هؤلاء في كل أمة من الأمم، وفي كل عصر من العصور، يسيرون في أعمالهم بوحي

العاطفـة، لمـا كان هنالـك شيء يقـال لـه ديـن، أو وطـن، أو اجتـماع!

يقـول شـيلي، الشـاعر المعـروف: «مـاذا تكـون الفضيلـة والحـب والصداقـة والوطنيـة، بـل قـل مـاذا يكـون جـمال هـذا العـالم الـذي نعيـش فيـه، ومـن يكـون عزاءنـا فـوق هـذا القـبر، ومـاذا تكـون رغباتنـا بعـد أن نـودع فيـه إذا لم تكـن العاطفـة قـد صعـدت لتسـتحضر نـورًا ونـارًا مـن تلـك الارجـاء الخالـدة، حيـث ملكـة العقـل لا تجـرؤ عـلى التحليـق فيهـا، ولـو اسـتعارت أجنحـة نـسر؟!»

ومـا أجـف الحيـاة وأكـثر ملالهـا، تلـك التـي تخضـع لمنطـق العقـل، وتستسـلم لقيـود المـادة!

وشـاعرنا، كان واحـدًا مـن الذيـن سـاروا في حياتهـم بوحـي العاطفـة، فهـذب النفـوس، وحررهـا مـن قيـود المـادة الثقيلـة فحبـب إليهـا الحيـاة!

لم يهـج في حياتـه أحـدًا، ولم يتبـذل في شـعره لمـدح أحـد. أسـمعه يعاتـب صديقـه المرحـوم الشـيخ عـلي يوسـف:

وعـن اصطحابك ما غنيت

ومـا افتقرت إلى اصطحابك

أنـا ما انقلبت عن الوداد

وأنت أعلم بانقلابك

لا تأخذني بالقياس

فـإن ما بي غير ما بك

عـاش بالفاقـة، ليلقـي درسًـا عـلى أربـاب الفاقـة في الصـبر عـلى متاعـب الحيـاة ومشـاقها!

رضي بالكفـاف مـن الـرزق، ليعلـم النـاس أن ليـس بالخبـز وحـده يحيـا الإنسـان!

مـا كان يملـك مـالًا يسـتعبد بـه النـاس، بـل كان يملـك قلبًـا يعطـف عـلى جميـع النـاس!

مـا كان يسـتل سـيفًا يقـاوم بـه الظلـم، بـل كان يحمـل قلـمًا يهـدد بـه الظـالم!

أصغ إليه إذ يقول:

فإمـا يراع يكتب المجد والعلا

وإما حسـام للبلاد يحرر

وأسـعد أوقات المجاهد ساعة

بها السـيف يملي واليراع يسطر

كان عبقريًـا، خصـب القريحـة، سريـع الخاطـر، واسـع المجـال. يرتجـل الشـعر، فيجـيء عفـو الخاطـر. ينظمـه متـين الأسـلوب بـدوي اللهجـة!

كان يصـوغ مـن الألفـاظ المجـردة معـاني روحيـة، تهـذب النفـوس، وتلعـب بأوتـار الأفئـدة!

دونك قطعة من فنه الشـعري الدقيق:

قالوا الحمام أسر إن

يمشي إليك فقلت أخشى

أخشى يقصر خطوة

فيطيل إن نحوي تمشى

ويروح يرشوه اللئام

فينثني، والوغد يرشى!

داعبت أنامله قيثارة الشـعر فأرسـله ألحانًا، أثار بها الحماسـة في الصدور!

أليس هو القائل:

من لم يعز بموطن

حرّ يكن الذل عبدًا

إن لم تكـن تجدي الحياة

بعزها فالموت أجدى

رسـم بمقاطـع شـعره صـورًا، نطقـت بأجمـل مـا تكنـه نفـس بشريـة مـن العواطـف!

تفانى بحب بلاده!

حمـل في عنقـه مختارًا أمانة، أن يدفع عن وطنه غائلة الظلم والاسـتعباد!

علم أن الاسـتعمار مذلة. وأن المسـتعمرين قوم خداعون!

يعلنـون حريـة الأمـم، ليقضـوا عـلى حريتهـم. ويدعـون تمديـن الشـعوب، ليقفـوا حاجـزًا دون تمدنهـم!

اسـمعه وهو يحمل على الاستعمار والمستعمرين:

ذكـرت الأولى أعطوا العهود وطبلوا

بإعلانها في المشرقين وزمروا

وقالوا لنا سـيروا لكي تبلغوا المنى

وقد خندقوا دون الأماني وسـوروا

ولم أدرِ هـل جاؤوا إلينا ليطلقوا

مـن الأسر أم جاؤوا إلينا ليأسروا؟

***

مـات الكاظمـي، الشـاعر العراقـي الكبـير، بـل شـاعر القوميـة العربيـة. وافتـه المنيـة في مـصر عـن عمـر لا يتجـاوز الثالثـة والسـتين. قـضى منهـا سـتًا وثلاثـين سـنة غريبًـا عـن موطنـه، بعيـدًا عـن أهلـه وصحبـه.

فالعروبـة تبكيـه اليـوم في جميـع الأقطـار الناطقـة بالضـاد وترثيـه. ترثيـه بلسـان جميلهـا الزهـاوي حيـث يقـول:

الكاظمـي قد اعتنى ببلاده

وبلاده بحياته لم تعتن

لـو كان يحظى في العراق ببلغة

ما سـار يقصد مصر عبد المحسن

بلـد به بخلاف ما في غيره

شـبع الدخيل واسغب ابن الموطن

مـا أكبر الأخلاق في نفس امرئ

إن خاشـنته الناس لم يخشوشن

رحم اللـه فقيدنا العظيم، وأجزل ثوابه!

المرحوم الشيخ عبدالمحسن الكاظمي الشاعر العراقي الكبير

يوم النّصر

«في يـوم الأحـد ١٩ نيسـان سـنة ١٩٣٦ أعلـن عـرب فلسـطين إضرابهـم العـام الشـامل بـرًا وبحـرًا في فلسـطين كلهـا، احتجاجًـا عـلى تدفـق الهجـرة اليهوديـة. ثـم تحـول الإضراب إلى ثـورة داميـة ظلـت ١٧٦ يومًـا. وفي يـوم الاثنـين ١٢ تشريـن الأول سـنة ١٩٣٦ أنتهـى الإضراب، الأول مـن نوعـه في التاريـخ، بنـاء عـلى دعـوة مـن ملـوك العـرب وأمرائهـم. وبهـذه المناسـبة نـشر المؤلـف في جريـدة الدفـاع الغـراء الكلمـة التاليـة ذكـرى لذلـك اليـوم المشـهود»

•••

مـن كان مؤمنًا ومحبًا للوطـن، فليبتهج بهذا اليوم

من كان عربيًا شـكورًا، فليعيد فرحًا مسرورًا

مـن تعب صابرًا، فليأخذ الآن أجرته

من جاهد من السـاعة الأولى، فلينل حقه كاملًا

من عمل بعد السـاعة الثالثة، فليتقبل هذا اليوم شـاكرًا

من وافى بعد السـاعة السادسـة، فلا يشك، فإنه لا يخسر شيئًا

مـن تأخـر إلى السـاعة التاسـعة، فليتقـدم غـير مرتـاب مـن وصـل في السـاعة الحاديـة عـشرة، فـلا يخـشى الإبطـاء

إن الوطـن كريـم جـواد. يقبـل الأول مثـل الأخـير. ويجـازي مـن جاهـد مـن السـاعة الحاديـة عـشرة بمثـل مـا يجـازي مـن جاهـد منـذ السـاعة الأولى!

***

أيها الأولون والأخيرون خذوا أجوركم

أيها الأغنياء والفقراء اطربوا ليوم النصر

اذكروه في كل سنة من سني حياتكم

تمتعوا كلكم بلذة الفوز والانتصار

فلسطين لم تعد لنا وحدنا، بل أصبحت اليوم ملك كل عربي

هي مهبط الوحي المسيحي الإسلامي

هي مهوى أفئدة المسلمين والمسيحيين في أنحاء الأرض

هو ذا ملوككم وامراؤكم، أيها العرب، يدعونكم إلى الراحة بعد التعب. إلى الحياة الهادئة المطمئنة بعد القلق والاضطراب

دعوة كلها مشاركة بالألم، وكلها ثقة بالمستقبل. لهم الأمر وعلينا الطاعة

قد أخذوا على عاتقهم مسؤولية مصير هذه البلاد المقدسة، بعد أن كانت حملًا ثقيلًا ناءت به ظهورنا كفى نصرًا لنا أن تصبح قضية فلسطين، قضية العرب والإسلام!...

لا ينح أحد بعد اليوم، فإن الحق برز ناصعًا من بين ظلمة الدعايات، وفساد الأضاليل

كلوا كلكم من وليمة النصر

تمتعوا كلكم بشرف جهاد لم يكن له مثيل على وجه الأرض

الذي جاهـد والذي لم يجاهد، فليفرح اليوم

هو يوم لا يمحو ذكراه كرّ الأيام، ولا ينسـينا إياه تعاقب العصور

لا يخـف أحد مكـر الصهيونية، فإن الحق قد أخمده

لا يخـش أحـد ضياع الوطن، فإن دماء الشـهداء قد أيدت لنا ملكته!...

***

اليـوم يلقى الثائر بندقيته، ويسـتعيض بالمحراث

اليـوم يعود المعتقلـون إلى أهلهم، مرفوعي الرأس موفوري الكرامة

اليـوم يعـود العامل إلى عملـه، بعد أن تعطلت يداه عن العمل

اليـوم يعود التاجـر إلى تجارته، ليرمم ما هدمه منها الأضراب

اليـوم يعـود البحار إلى «ماعونته»، بعد أن اشـتاقت إليها مياه البحر

اليوم يطير السـائق بسـيارته، بعد أن وقفت حركتها الدائمة

اليـوم تعود المـرأة إلى خدرها، بعد أن أدت واجبها بأمانة

اليـوم يعود التلميذ إلى مدرسـته، بعد أن جـاز امتحانًا في الوطنية ونجح

اليوم تعود للشـعب الحياة، بعد أن جاهد طويلًا في سـبيل الحياة

اليـوم تعـود إلى البيـوت أفراحهـا ومسراتهـا، بعـد أن حرمـت منهـا شـهورًا سـتة!

***

أيهـا اليتيم لا تحزن، فكلنا والدك

أيتها الأرملـة لا تجزعي، فكلنا في خدمتك

أيتهـا الثكلى لا تبكي. فكلنا ولدك

أيها العجوز لا تخش السـقوط، فكلنا عكاز لك

أيهـا الفقـير لا تشـك فقـرًا، فقـد أصبحـت غنيًـا بوطنـك أيهـا الغنـي لا تنـدب مـالًا، فـكل شيء يعـوض إلا الوطـن أيهـا الشـعب المنتـصر، قـد بهـر جهـادك العـالم كلـه حسـبه إضرابًـا، فـإذا بـه ثـورة

حسـبه مهزلة، فإذا به حقيقة مرة

ذكرى الأجيال جهاد فلسـطين، فلتخلد هذه الذكرى إلى الأبد

حريَّة الفكر

•••

حريـة الفكـر شـعلة قدسـية نورانيـة، خـص بهـا اللـه نفـرًا مـن النـاس، ظهـروا في متعاقـب عصـور التاريـخ، فكانـوا للبـشر هـداة ومعلمـين.

ولـولا هـذه الفئـة المختـارة، التـي تدعـى (بحـق) هبـة الأجيـال، ولـولا تضحياتها الخالـدة في سـبيل تحريـر الفكـر، لبقـي النـاس تائهـين في صحـاري الجهـل، ولظلـت نفوسـهم تغمرهـا ظلمـة العـادات والتقاليـد! إن الأفـكار الحـرة كثـيرًا مـا تكـون سـببًا في اضطهـاد صاحبهـا، بـل مدعـاة لقتلـه. ولكـن مـن يسـعى وراء الحقيقـة، لا يأبـه لاضطهـاد يثـيره جهـل القـوم وتعصبهـم، بـل يجـد لـذة في نـشر رسـالته بينهـم، لأن كتمانـه لهـا يُعـد اسـاءة إلى الإنسـانية. ويكـون مثلـه كمثـل الـذي طمـر وزنـة سـيده في الأرض، ولم يتاجـر بهـا. فبـاء باللعنـة إلى الأبـد!

إن الذيـن يفهمـون حقائـق الأمـور بالنسـبة إلى الذيـن يجهلونهـا قليلـون. وأقـل منهـم الذيـن يجاهـرون بهـا حبًـا في الصالـح العـام.

لأنهـم يخشـون أن تمـس تلـك الحقائـق معتقـد الجمهـور، الـذي تعـود أن يتخـذ قـدم الـشيء دليـلًا عـلى صحتـه. فهـم والحالـة هـذه كالطبيـب الـذي يحجـم عـن إجـراء العمليـة للمريـض خـوف إيلامـه!

ومنهـم مـن يفهـم خطـأ الجمهـور، فيجاريـه فيـه لغايـة ماديـة أو وطنيـة أو سياسـية. ولكـن هـذه المجـاراة لا تلبـث حتـى تـزول بـزوال أسـبابها.

قيل إن رجلًا من الكوفة، دخل دمشق على بعير في حال منصرف جيش معاوية عن واقعة « صفين « فتعلق به رجل من أهل دمشق فقال:

هذه ناقتي أخذت مني في «صفين»

فارتفع أمرهما إلى معاوية. فاقام الدمشقي خمسين رجلًا بينة، يشهدون أنها ناقته. فقضى معاوية على الكوفي، وأمره بتسليم البعير إليه.

فقال له الكوفي:

أصلحك الله، إنه جمل وليس بناقة. فقال معاوية:

هذا حكم قد أمضي

ودس إلى الكوفي بعد تفرقهم، فأحضره وسأله عن ثمن بعيره، ورفع إليه ضعفيه، وبره وأحسن إليه، وقال له:

أبلغ عليًا أني أقابله بمئة ألف، ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل!

يقول سقراط:

«ليس على الأرض إنسان له الحق أن يملي على الآخر ما يجب أن يعتقد به، أو يحرمه حق التفكير كما يهوى.»

إن عقيدة الإنسان هي عزاؤه الوحيد في دنياه وهو حرٌ بها ما دامت حريته هذه لا تتعدى حرية الآخرين. وليس ما يطلب العقيدة إلا أن تكون مما يرتاح إليها صاحبها، ومما يطمئن إليها قلبه، وتفيده في حياته الحاضرة. أما ما لا يريح، ولا يطمئن إليه القلب ولا يفيد في

الحيـاة مـن الآراء والعقائـد، فأحـر بـه أن ينبـذ.

ليـس مهـمًا أن يختلـف النـاس في عقائدهـم، وإنمـا المهـم ألا تصطبـغ هـذه العقائـد بصبغـة القداسـة بحيـث لا تتغـير ولا تتبـدل!

أنـا لا تهمنـي حقيقـة مـا أديـن بـه، بقـدر مـا يهمنـي مبلـغ فائـدة هـذا الديـن لي، ومـدى تأثـيره في لصـيرورتي إنسـانًا عمليًـا صالحًـا للحيـاة.

إن جميـع العقائـد لم توضـع في الأصـل إلا لخدمـة البـشر. غـير أن جمودهـا والتحـول الدائـم في حيـاة الإنسـان، جعلاهـا عرضـة للشـك. هـذا هـو الأصـل في ثـورة الإنسـان عـلى عقائـده التقليديـة في الديـن والسياسـة والاجتـماع. ولـو مشـت هـذه العقائـد مـع الرقـي العلمـي لمـا حدثـت الثـورة عليهـا. ولمـا أهـدرت في سـبيلها دمـاء مئـات الألـوف مـن البـشر الأبريـاء!

حدثني أحدهم فقال:

- آه لو كنت في زمن المسـيح!

- فقلت: ولماذا؟

- فقال: لأراه بعيني، وأسـمعه بأذني.

- فقلـت: لكنـت أحد الذين صلبوه من اليهود!...

فاسـتهجن الرجـل كلامـي، وبـدت علامـات التأثـر الشـديد عـلى وجهـه. أمـا أنـا فأردفـت قـولي:

- هل سـمعت بالمرحوم ولسـن ومبادئه الأربعة عشر؟ -فقال: نعم

- فقلت: وهل استحسـن أحد من ساسـتنا هذه المبادىء واعتنقها؟

- فقال: كلا

- فقلت: سيعيد ساسة الغد نفس قولك:

آه لو كنا في زمن ولسن، لنراه بأعيننا، ونسمعه بآذاننا!...

***

سيقول الجامدون، المتعلقون بأهداب القديم البالي، إن ما تظنونه اليوم حقيقة قد يصبح وهمًا في المستقبل!

هذا صحيح، ولكن...

لو تعصب البشر لعقيدتهم في عبادة الأصنام، لما ظهر دين التوحيد.

ولو تمسك علماء الكيمياء بالنظرية القائلة إن عناصر الكون أربعة الماء والهواء والنار والتراب لما كان من هذا العلم نفع!

ولو ظل الناس يعتقدون أن الحمار أفضل وسائل النقل، لما امتطينا الهواء!

ولو أعتمد البشر في معالجة مرضاهم على السحر والعرافة حتى اليوم، لما تم لعلم الطب ارتقاء!

علينا أن نتمسك بما نراه حقًا اليوم، ولسنا مسؤولين عن فساده أو صحته في المستقبل. إذ لا يليق بنا ونحن في القرن العشرين، أن نعيش بعقول أبناء القرون المظلمة!

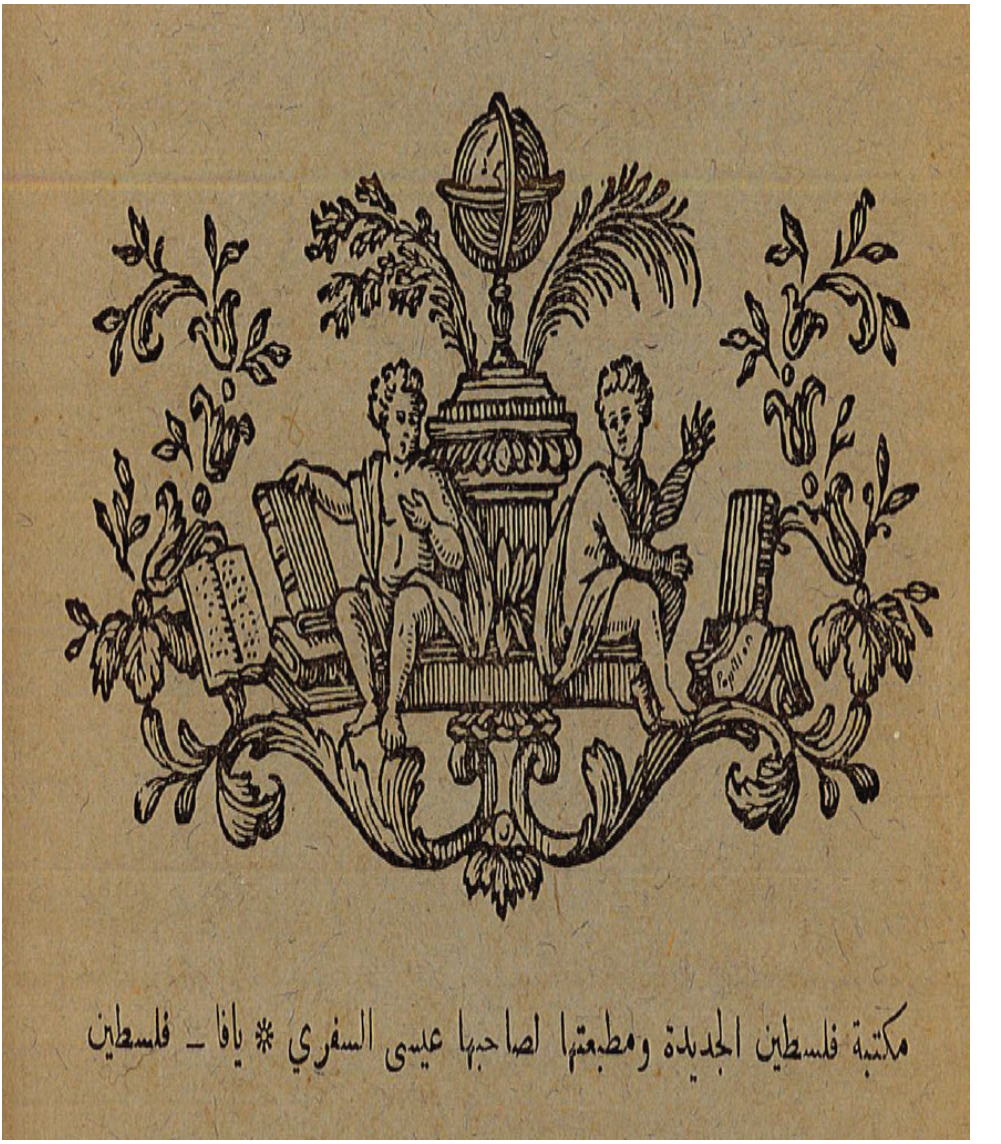

مكتبة فلسطين الجديدة ومطبعتها لصاحبها عيسى السفري * يافا ـ فلسطين

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان